

کیتشیرو هیرانو

حکایة قمر

الكتاب: حكاية قمر

المؤلف: كييتشيرو هيرانو

المترجم: ميسرة عفيفي

عدد الصفحات: 160 صفحة

الترقيم الدولي: 978-9938-886-28-3

رقم الإيداع: 2013/19419

هذه ترجمة كتاب


Conte de la premiere lune 一月物語

Keiichiro Hirano 平野 啓一郎の著書 Copyright 2007

الطبعة الأولى: 2014

جميع الحقوق محفوظة ©

الناشر:

للطباعة والنشر والتوزيع 

مصر: القاهرة - وسط البلد 8 شارع قصر النيل 10 شقة 10

هاتف: 0020227738931 - 00201007332225

فاكس: 0020227738932

بريد إلكتروني: cairo@dar-altanweer.com

بيروت 11 الجناح 11 مقابل السلطان ابراهيم

لبنان:

سنتر حيدر التجاري 11 الطابق الثاني - هاتف وفاكس: 009611843340

بريد إلكتروني: beirut@dar-altanweer.com

تونس: 24، نهج سعيد أبو بكر 1001 تونس

هاتف وفاكس: 0021670315690

بريد إلكتروني: tunis@dar-altanweer.com

موقع إلكتروني: www.dar-altanweer.com

رقم الناشر: 14/464-36

طُبِعَ هذا الكتاب بدعم من المؤسسة اليابانية

كيتشيرو هيرانو

حكاية قمر

ترجمة: ميسرة عفيفي



سأهمت مؤسسه اليبان في تكاليف ترجمة وطبع هذا الكتاب.

يتراقص مترنحًا ما بين الحلم والواقع

توكوكو كيتامورا⁽¹⁾

(1) توكوكو كيتامورا: شاعر وناقد وفيلسوف ياباني (اسمه الحقيقي مونتارو كيتامورا) ولد في مدينة أوداوارا بمحافظة كاناجاوا في العام الأول من عصر مييجي (1868) لأسرة عريقة من أسر الساموراي التي سقطت مع سقوط الحكومة العسكرية لأسرة توكوغاوا، فانتقل مع أبويه للعيش في طوكيو في منطقة سويا التي يقال إن الاسم الذي اتخذته للكتابة (توكوكو) مأخوذ من اسم تلك المنطقة لكنه غيره من سويا إلى النطق الصيني توكوكو. درس كيتامورا في مدرسة طوكيو الأهلية التي أصبحت فيما بعد جامعة واسيدا أشهر جامعة يابانية خاصة. شارك في بداية حياته في حركة الحريات والحقوق المدنية ولكنه تركها بعد اكتشافه تكالب رجالها على السلطة ومحاولة فريق منهم التخطيط لسرقة أحد البنوك من أجل تمويل الحركة. عندما بلغ التاسعة عشر من عمره تعبد كمسيحي، وفي نفس العام تزوج من مينا إيشيزاكا. بعد تركه السياسة وتحوله لشاعر أصبح من رواد الحركة الرومانسية في اليابان وتأثر به كل الشعراء والأدباء الرومانسيون اليابانيون الذين جاءوا بعده. انتحر وهو في الخامسة والعشرين من عمره بشنق نفسه على شجرة في حدائق شيبا بوسط طوكيو.

شخصية بطل الرواية ماساكي إيهارا السياسية والأدبية تتشابه كثيرا مع كيتامورا ولو أن أحداث الرواية تبدأ بعد حوالي خمس سنوات من انتحار كيتامورا في الواقع. أي أن هيرانو أخذ شخصية كيتامورا لبنى بها عملا فنيا من خياله بعيدا عن النهاية الحقيقية للشاعر توكوكو كيتامورا.

في غروب يوم من أيام بدايات صيف العام الثلاثين⁽¹⁾ من عصر مييجي⁽²⁾.

يقف شاب بمفرده فوق قمة جبل أوسن داكه الواقع في قرية توتسوكاوا بمحافظة نارا⁽³⁾. يرتدي زي هاكاما المتواضع فوق رداء أبيض، لم يصل الأمر به إلى أن يرتدي القُبَّاب الياباني العتيق عالي الكعب. وعضًا عنه يلبس خُفًا من القش، ولكنّه من حيث هيئته؛ رأسه الذي قَصُر فيه الشعر

(1) العام الثلاثون من عصر مييجي هو عام 1897م
(2) عصر مييجي: يؤرخ اليابانيون السنين بفترات حكم الأباطرة اليابانيين الذين يعتقد اليابانيون أن نسل الأباطرة مقدس وأنهم من نسل إلهة الشمس في سلسلة طويلة يقولون إنها لم تنقطع منذ أكثر من ألفين وستمئة من السنين بداية من الإمبراطور جينمو وحتى إمبراطور عصر هيسيه الحالي الذي هو رقم 125 في تلك السلسلة. بدأ عصر مييجي في عام 1868م بعد سقوط حكم عائلة توكوغاوا من الساموراي وعودة مقاليد الحكم إلى الإمبراطور في ثورة أطلق عليها ثورة مييجي كانت بداية التحديث ودخول اليابان في مصاف الدول المدنية الحديثة، وانتهى عصر مييجي في 1912م بعد 45 عاما من حكم إمبراطور مييجي وتولى بعد ابنه لتغير اسم العصر إلى عصر تايشو حتى عام 1925م ثم عصر شوا حتى عام 1989م، فعصر هيسيه.

(3) محافظة نارا: إحدى محافظات اليابان السبعة وأربعين، تقع في إقليم كينكي الغربي، وهي شرق محافظة أوساكا ثاني أكبر محافظات اليابان. مساحة محافظة نارا حوالي 3691 كم مربع أغلبها مناطق جبلية وغابات خضراء. كانت مدينة نارا عاصمة اليابان في بداية القرن الثامن الميلادي واستمرت عاصمة للبلاد لحوالي ثمانين عاما، إلى أن انتقلت العاصمة إلى مدينة كيوتو التي تقع في شمال نارا.

حتى منتهاه، ووجهه الذي يبدو عليه القليل من التعب، ربما يكون طبيعيًا لو أنه كان طالبًا جامعيًا يتسكع في نطاق حي ميتا⁽¹⁾ في طوكيو. وهو ما لا يتلاءم بأيّ حالٍ مع المنظر الجبلي المحيط.

لهذا الشاب وجه في غاية الجمال. ولكن ظلًّا لا ارتسمت أسفل محجر العين العميق، وكأنَّ إبرًا حادةً للغاية قد حفرت عدة خطوط متتالية على صفيحة من نحاس تميل إلى الحمرة. حركة الجفون سريعة وخفيفة، وتطرف عينه مرتين أو ثلاث مرات على التوالي. إنها أعراض ما يسمى المزاج الصفراوي الأسود الذي لم يكن يوجد في اليابان قبل انفتاحها على العالم. وكان ذلك أيضًا أمرًا غريبًا بشكل بارز.

امتصّت غابة أشجار البلوط، التي تغطي منحدر الجبل دون مقاومة منه، لون الغسق القرمزي، فأصبحت منتفخة مثل النحل الغارق في العسل. أشعة الشمس بين الأشجار قليلة، والضباب بعيد. نظر الشاب خلفه واتبه لمكانه لأول مرة، فوقف في موضعه مذهولًا.

«أين أنا؟ وكيف ضللت طريقي إلى هذا المكان؟»

فجأة ارتفعت في السماء أصوات طائر الوقواق.

الشاب اسمه ماساكي إيهارا. يبلغ من العمر 25 عامًا.

وكان قد مرَّ بالفعل يومان منذ أن خرج من هاشيموتو⁽²⁾ سائرًا على

(1) حي ميتا: حي في نطاق مدينة طوكيو يوجد به المقر الرئيس لجامعة كيوا من أشهر الجامعات الخاصة في اليابان.

(2) هاشيموتو: مدينة تقع في محافظة واكاياما على الحدود مع محافظة نارا. توجد بها حاليا محطة هاشيموتو ولكن وقت الرواية كانت محطة فوتامي هي أقرب المحطات لها.

قدميه في طريق كوهيجي⁽¹⁾ من أجل زيارة معبد كومانو الكبير. وكان قد بات ليلة في نُزُل أوئيشي في طريقه إلى إيموزيه مرورًا بقمة جبل أوباكو المشهور بوعورته. وهناك اشترى ماساكي خُفًا جديدًا استبدله بالخفّ القش الذي تمزّق بشدّة أثناء الطريق. ثم خرج من النُّزُل في صباح اليوم التالي، متأخرًا قليلًا بسبب بعض التفاصيل، ولكن بعد ذلك، وعلى غير المتوقع، كانت الرحلة سهلة، فرغم سيره البطيء جدًا إلاّ أنّه تخطى إيموزيه ووصل إلى مدينة ميورا، وأخيرًا في حدود عصر ذلك اليوم كان على وشك صعود هذا الجبل.

ماساكي الذي يعاني كثيرًا منذ بداية العقد الثاني من عمره، من مرض يُطلق عليه في المعتاد اللوهن العصبي، كان من عاداته السفر في رحلات ترفيهية يخفف بها من كآبة نفسه. بدأ ماساكي هذه العادة استجابة لنصيحة والديه. اقترح والده ذلك في البداية، وبعده أيدت أمه الفكرة. ولقد ذاق ماساكي فاعلية وتأثير السفر في أولى رحلاته. ولذا انطلق بعدها مسافرًا، وكأنّه يسعى لتناول دواء سحري.

لم يكن ماساكي يحدّد في الغالب الهدف النهائي للرحلة. فقط يركب القطار، وعندما يمل، يترجّل منه ويتجوّل لمشاهدة المكان. يتعمّق في تأمّل مناظر المباني في المدينة. أو يزور الأماكن الأثرية القديمة. وفي بعض الأحيان، يتنزه في المواضع المنعزلة المشهورة بجمالها والتي لا يرتادها الناس عادة. ولأنّ هذه هي طريقته في السفر، فيحدث أن يستمر في السير على قدميه لمسافات طويلة بلا تخطيط.

(1) كوهيجي: إحدى طرق الحج القديمة الخاصة بمعابد كومانو الثلاث الكبار، وكانت تربط معبد جبل كويا البوذي بمعبد كومانو الرئيس.

ولكنه لم يكن يشعر مطلقاً بأيّ استياءٍ إزاء ذلك. بل على العكس، كان الإرهاق الذي يتلقاه الجسد مباشرة من العالم الخارجي، شيئاً ممتعاً بالنسبة له. فهو مختلف تماماً عن الإرهاق غير المباشر، الذي يتلقاه الجسد داخلياً بعد أن يلمس من نفسه ما لا يجب لمسه فيصنع رنيناً مزعجاً. فالإرهاق المباشر منعش، يشبه وعثاء الطريق التي تزول فوراً منسابة مع ماء أول استحمام في النُّزل. إرهاق يُهضم بسهولة مع طعام العشاء. إرهاق يتم تركه ونسيانه غفلة فوق الفراش عند الانطلاق في صباح اليوم التالي.

منذ عدة أيام، اشتاق ماساكي فجأة إلى الإحساس بهذا الإرهاق مرّةً أخرى. وعندها اقترض من بعض أصدقائه في الجامعة مالاً، ثم عاد إلى منزل عمه الذي يسكن ماساكي معه مؤقتاً، واقترض منه كذلك بعض المال، ثم استأذنه في الرحيل، وتوجّه إلى محطة قطار شينباشي⁽¹⁾، بالملابس نفسها التي كان يرتديها، وبدون أن يقوم بأيّ استعدادات تقريباً. هناك عدّة صدف عجيبة تفسّر وقوع ماساكي في تيه هذا العمق من الجبل. وإذا بحثنا عن أصل ذلك سنجد أنّ البداية كانت هنا. وصل ماساكي أخيراً إلى محطة القطار بعد أن ظلّ يركض مع غيوم الظلام، ثم توقّف عند بوابة الدخول، وأنعم فكره للحظات.

القد تركتُ العنان لقدمي اللتين أتتا بي إلى هنا أخيراً. حسناً، إلى

(1) محطة شينباشي: محطة قطار سلك حديدية في وسط طوكيو. عندما أفتتح أول خط سكة حديد بشكل رسمي في اليابان بين طوكيو ويوكوهاما في عام 1872 كانت هي بداية الخط من ناحية طوكيو. وعندما أنشأ خط توكاوي الذي ربط بين طوكيو في شرق اليابان وكوبيه في غربها في عام 1889، كانت محطة شينباشي هي بوابة طوكيو الرئيسة لذلك الخط. وبعد إنشاء محطة طوكيو المركزية، أصبحت محطة شينباشي الآن محطة من محطات خط يامانوته الدائري في وسط طوكيو.

أين ينبغي أن أذهب بعد ذلك؟ هل أتجه غربًا بلا حيرة؟ أم أذهب إلى
[[أوينو]]⁽¹⁾ ومنها أتوجه شرقًا؟]]

في آخر رحلة له، زار آثار ما خلفه الشاعر [[باشو]]⁽²⁾ في رحلاته حتى
وصل في النهاية إلى [[ماتسوشيما]]⁽³⁾. إذا كان الأمر كذلك، فهل يجب
عليه هذه المرّة الاتجاه غربًا؟ ولكن ماساكي عندما يتذكر المناظر
الرائعة لـ [[ماتسوشيما]] التي انبعثت حيّة نابضة مرّةً أخرى في قلبه،
يحسُّ أن الذهاب إلى المكان نفسه مرّةً أخرى ليس بالأمر السيء.
[[إلى أوينو؟...]]

بعد أن كلّم نفسه هكذا، وعندما بدأ السير، مرّ أمامه فجأة جماعة
مكوّنة من أربعة أو خمسة رجال ونساء يرتدون زيًّا غربيًّا.
[[... حقًا، لا تزال [[يوشينو]]⁽⁴⁾ مكانًا جميلًا حتى بعد أن تسقط زهور
الكرز.]]

(1) محطة أوينو: أنشئت في عام 1882 لتكون المحطة الرئيسة في أول خط سكك
حديد أهلي في اليابان [[سكة حديد اليابان]] والذي ربط بين أوينو وكوماغايا في
محافظة سايتاما شمال طوكيو. تعتبر حاليًا إحدى أكبر محطات القطارات في اليابان
وبوابة طوكيو للقادمين من شمال اليابان.

(2) باشو ماتسوسو (1644 || 1694): أعظم شعراء الهايكو اليابانيين على الإطلاق
ولد وعاش في القرن السابع عشر الميلادي أي في النصف الأول من عصر إيدو
(1603 || 1686). سافر في عام 1689 في رحلة طويلة زار فيها إقليم اليابان الشمالي
والشمالي الشرقي، نتج عن تلك الرحلة أشهر مؤلفات باشو وهو ديوان [[الطرق
الخلفية الضيقة]]. مات عام 1694 وهو في الخمسين من عمره.

(3) ماتسوشيما: مجموعة جزر تتبع محافظة مياغي في شمال غرب اليابان قريبة من
اليابسة ومتصلة بها، وتمتاز بجبال مناظرها الطبيعية الخلابة.

(4) يوشينو: إقليم يشغل مساحة واسعة من محافظة نارا غربي اليابان. كانت مقرا
للإمبراطورية الجنوبية وقت انقسام البيت الإمبراطوري الياباني إلى شمالي
في كيوتو وجنوبي في يوشينو لمدة تزيد قليلا عن نصف قرن. ولكن بعد انهيار
الإمبراطورية الجنوبية وضمحلها عادت يوشينو إلى ما كانت عليه من كونها
مدينة ريفية صغيرة.

كانت امرأة منهم قد قالت ذلك، وعلى فمها ابتسامة واسعة، امرأة تقترب من الثلاثين من العمر، تمسك بميل مظلة ناظرة لوجه رفيقتها التي تبدو أنها أمها. ترتدي قبعة فوق دبوس زينة على شكل وردة حمراء غُرز بزواوية ميل في شعرها، وعلى القبعة ربطة فرنسية. لون شعرها غامق، وعنقها نحيف شديد البياض كأنه عود نبات اللوتس. كانت المظلة المفتوحة وردية اللون كأوراق اللوتس. وكانت حافة القبعة الدائرية منقلبة كأنها عضو التذكير في زهرة زاهية الألوان. ترتدي، ببساطة وبلا تكلف، فستاناً أبيض فاخراً ذي ذوقٍ رفيع، يليق حقاً بنبات النبلاء. هيئتها تلك وقد أوقفت قدميها فجأة وسط زحام الناس، جعلت ماساكي يتذكر لوحة شاهدها من قبل في مكتبة عمه لامرأة رسمها الفنان مونييه⁽¹⁾.

كانت تلك المرأة متناسقة تماماً مع الزيِّ الغربي بلا أية كلفة، ما يجعلها لا تقلُّ عن امرأة اللوحة التي رآها. وكان الحذاء ذو الكعب العالي يناسبها كذلك. ولكن رغم ذلك كان هناك شيء ما في مظهرها له ملمح عتيق. بشكل ما، كان عقب المحتوى الغربي الياباني متجانساً بدقة، مثل زينة الرأس، وله جاذبية عجيبة.

نظرت تلك المرأة لمجرد لحظة واحدة فقط إلى الخلف تجاه ماساكي، وأمالت عنقها الصغير لتنظر إليه نظرة تبدو فاحصة. الشفتان الراقيتان المزيتتان بأحمر شفاهٍ خفيف، المنفرجتان قليلاً، جعلتا

(1) مونييه: كلود مونييه (1926 || 1840) رسام فرنسي رائد المدرسة الانطباعية في الرسم ويعتقد أن اللوحة المذكورة هي لوحة المرأة صاحبة المظلة التي رسمها عام 1875 وتعد من أشهر أعماله.

الأسنان البيضاء تظهر خلسة. ماذا تحاول أن تقول له يا ترى؟ نظر
ماساكي بلا وعي إلى عينيها. لم تخرج كلمات. ولكن حواف الجفون
كانت تخترن قوّة ما ضئيلة، وكأنها قد انتهت بالفعل من قول شيء.
وقع ماساكي في حيرة. وبعد تردّد بسيط، أبلغها من خلال لغة
العيون شيئاً ما لا يحتوي على كلمات. شيء ما لم يصل بعد إلى
درجة الوعي، ولا يفهمه حتى هو نفسه. ولكن ملامح المرأة أظهرت
تجاه ذلك ابتسامة فيها شعور ضئيل بالرضا. ثم أدارت وجهها صامتة
كما هي إلى وجهته الأولى من دون أن تتلفظ بكلمة واحدة. وتابعت
السير مرّةً أخرى، عندها وجّهت كلامها، بشكل عفويّ وتلقائيّ مغاير
تماماً لما سبق، إلى الرجل المرافق لها الذي كان قد سبقها، وتخطّت
الازدحام ثم مرّت من بوابة دخول المحطة، واختفت في لمح البصر
بعيداً تجاه الطرف الأقصى من الرصيف.

ودّعها ماساكي بنظره وهو يقف في ذهول.

«لقد قالت يوشينو...»

هكذا همس لنفسه وهو يتوجّه إلى نافذة بيع التذاكر، وهناك قام
بشراء تذكرة لخط أتوكاي المتوجّه غرباً.

كانت تلك هي أولى الصدف العجيبة.

بعد أن لمح ماساكي تلك المرأة على الرصيف لآخر مرة، لم يتمكن
من لقاءها مرّةً أخرى. هؤلاء، في الأصل، من طبقة ركّاب الدرجة
الفاخرة، وماساكي من ركّاب الدرجة العادية المزدحمة وكأنها محشوّّة
كالسوشي. يظلُّ المرء واقفاً فيها بدون فرصة للحصول على مقعد،
وهو يسمع أحاديث الركاب عن الاقتصاد الذي انتعش بعد الحرب،

ثم أصبح على وشك أن يكون وضعه خطيرًا مرّةً أخرى، وعن أسعار الأرز التي يبدو أنها سترتفع. ولذا فلا يمكن له الاقتراب منهم والسير خلفهم. ولكن حتى لو تمكن من ذلك، فعلى الأرجح أن المرأة لم تكن تريد هذا. فالكلمات التي تبادلها معًا لم تكن بهذا الوضوح، ولكنها يجب أن تتحقق بشكل خفي وسري ويكون ذلك عن طريق الصدفة. من أجل ذلك، ورغم عدم وجود أيّ شيءٍ تقريبًا يعتمد عليه في ذلك الشعور، كان يحتوي ماساكي شعور مبهم بأنّه لو ذهب إلى إيوشينو¹، فإنه سيلتقي مرّةً ثانية بتلك المرأة في مكان ما، بل إنه كان يؤمن بيقين، شبه كامل، بحدوث ذلك اللقاء.

أمضى ماساكي ليلته في غرفة بـ إكيوتو¹، وفي الصباح التالي ركب قطار سكك حديد نارارا، الذي كان قد بدأ تشغيله منذ فترة قريبة، من محطة أشيتشي جوا، وتخطى إكيزوا، ذاهبًا إلى نارارا، وحيث بدّل القطار وركب قطار سكك حديد أوساكا، فوصل إلى تاكادا مرورًا بـ أوجي.

وهناك بات ليلة في نزل.

أحسّ ماساكي بالحنين والشوق إلى إيوشينو التي أصبحت على مقربة منه.

(1) كيوتو: عاصمة اليابان القديمة ومقر العائلة الإمبراطورية لأكثر من ألف عام. لا زالت أكثر المدن اليابانية احتفاظًا بطابعها العريق من حيث المباني التاريخية والأثرية. يوجد بها عدد كبير من المعابد البوذية ومزارات الشنتو يصل إلى الآلاف. انتقلت العاصمة من كيوتو إلى مدينة إيدو مقر حكومة توكوغاوا العسكرية وتم تغيير اسمها إلى طوكيو (كيوتو تعني المدينة العاصمة، وطوكيو تعني العاصمة الشرقية) في بداية عصر مييجي (1868م) وتواكبا مع دخول اليابان العصر الحديث.

في الواقع، هو لم يزرها من قبل قط. ولكن من خلال كتب آتاهي كي⁽¹⁾ وآنانكوسانداي كي⁽²⁾ وغيرها من الكتب التي كان يهوى قراءتها في صباحه، أحسَّ أنه قد زار تلك الأرض بالفعل مرَّات عديدة في خياله. في أيوشينو⁽³⁾ الواقعية التي هو على وشك الوصول إليها الآن، الإمبراطورية الجنوبية⁽³⁾ القديمة اختفت بالفعل مثل الندى. ولكن لا بُدَّ وأنَّ هناك امرأة جميلة تمشي مختالة تزور ما تبقى من آثار تلك الإمبراطورية التي اضمحلت سريعا.

مع تفكيره في ذلك، ركب ماساكي في صباح اليوم التالي خط

(1) تاهي كي: كتاب من كتب التراث الأدبي الياباني مؤلف في أواخر القرن الرابع عشر الميلادي يقع في أربعين مجلدا، يحكي بشكل أساسي قصة الصراع بين البيت الإمبراطوري في كيوتو بقيادة القائد العسكري أشيكاغا وبين الإمبراطورية الجنوبية في يوشينو بقيادة الإمبراطور غودايغو، وسقوط حكومة كاماكورا وإنشاء حكومة موروماتشي العسكرية بقيادة أشيكاغا.

(2) نانكوسانداي كي: رواية تاريخية تحكي سيرة ثلاثة من محاربي الساموراي من أسرة كوسونوكي بدءًا من ماساشيغه كوسونوكي الذين حاربوا من أجل الإمبراطورية الجنوبية في يوشينو.

(3) الإمبراطورية الجنوبية (1392 || 1336): أنشأها الإمبراطور غودايغو في منطقة يوشينو جنوب كيوتو لذا سميت بالجنوبية وسميت الإمبراطورية في كيوتو بالإمبراطورية الشمالية بعد الانقسام الذي وقع بين اثنين من أفرع البلاط الإمبراطوري. بدأ الإمبراطور غودايغو الحكم في عام 1318 كإمبراطور مؤقت إلى أن يبلغ ابن أخيه الأمير كونيوشي ولي العهد السن القانونية، ولكنه طمع في العرش وأراد توريثه لأنثاه فرحل إلى يوشينو وأعلن نفسه إمبراطورا. أثناء الصراع بين الإمبراطوريتين انهارت حكومة كاماكورا العسكرية وتوحدت البلاد تحت حكم الإمبراطور غودايغو واستمر في الحكم حتى عام 1338، ثم ورثه ابنه غوموراكامي كإمبراطور للإمبراطورية الجنوبية، ولكن لم ييأس العسكريين من الساموراي وواصلوا محاربة الجيش الإمبراطوري حتى أسس أشيكاغا حكومة موروماتشي ودخلت اليابان في حرب أهلية استمرت قرون.

سكة حديد أنانوا⁽¹⁾، وبعد مرور فترة انتبه إلى عجوز يجلس في مقدمة الجانِب الآخر للعربة. كان العجوز يلفُ حزامًا مربعًا من قماش كُريب بلون بنفسجي على رداء كيمونو منزلي من قماش مموج. ويضع على ساقه الجُرْمُومًا⁽²⁾، ويظهر من طرف الرداء الذي قد شُمِّر، فخذ هو عبارة عن عظم وجلد فقط. الذراع رفيع كأنه عود قصب. ولكن رغم ذلك، تكوين الجسد القوي يدل على توافر الصحة على عكس ما يُتوقع.

كان قد بلغ من العمر أكثر مما يسمح بوصفه بالكهل. سقط اللحم عن الوجه مثل ثمرة الكاكا المجففة التي نفخت سكرها، لونه خفيف السمرة، وتتناثر شعيرات لحية بيضاء هنا وهناك. يحلق منتصف رأسه بحيث لا يمكن معرفة هل هو أصلع أم لا. ويتبقى من شعر الرأس مقدار ضئيل فوق الأذنين فقط.

بالطبع لم يكن أحد معارفه. ولكن ما قد جعله يشعر بألفة عجيبة مع وجه ذلك العجوز، هو أنه منذ الأمس وهو يركب معه دائمًا العربة نفسها، منذ رحيله عن كيو تو. وها هو اليوم يكرّر ذلك، نظر ماساكي عنفويًا إلى ذلك الوجه. وعندها وقف الرجل ووجه إليه الحديث.

وكانت تلك هي ثاني الصدف العجيبة.

«أخيرًا انتبهت إليّ؟»

بعد أن جلس العجوز بجواره وكأن ذلك أمر طبيعي، تحدث إليه حديث من يعرفه حق المعرفة.

ماساكي لم يكن يسعد بمثل هذه اللقاءات في رحلاته، فهو يتمنى لو

(1) خط سكة حديد ناناوا: خط سكك حديد استمر تشغيله فقط في الفترة ما بين عامي 1896 و 1904 وكان يربط بين محطتي تاكادا وفوتامي مرورا بمحطات شينجو غوسه واكيغامي كوزو كيتاوتشي غوجو.

(2) غطاء يوضع على ساق القدم لحمايتها من الأذى، ويعتبر الجرمق من عدة القتال الحربية خاصة المحاربين القدماء في العصور الوسطى.

يستطيع مواصلة السفر والترحال وحيداً. ولو كان لا بُدَّ من لقاء، يجب أن يكون ذلك اللقاء بناءً على ما يريده هو شخصياً وفي الوقت الذي يفضله. وإذا لم يحدث ذلك، فالفائدة التي يربوها من السفر تنخفض إلى النصف.

ارتسم شعور بالاستياء على وجه ماساكي. ولكنَّ العجوز لم يبدُ من حركته أنه يهتم بذلك ولو قليلاً. وأخذ يتكلم متنقلاً بين رؤوس موضوعاته واحداً بعد الآخر، وأحياناً، يضحك بصوت عالٍ على ما يقوله من مزاح. يعطى كلُّ ذلك، إضافة إلى مظهره، شعوراً كثيباً بشكلٍ ما. في عائلة ماساكي، أحد الأقرباء أصابه الجنون، وقد زاره عدَّة مرَّات في مستشفى الأمراض العقلية، ولذلك يعلم ماساكي جيداً أنَّ الشخص الذي أصابه خلل في عقله، يُطلق من وقت لآخر ضحكاتٍ جافة بلا معنى. طريقة ضحك ذلك العجوز كانت من هذا النوع.

ظلَّ ماساكي يوافق الرجل على ما يقول، بغرض تحمُّله حتى الوصول لمحطة كوزو^١، لأنه لم يكن لديه حيلة أخرى. وعند سؤاله قال العجوز إنه ينوي زيارة معبد كومانو الكبير^(١)، لذا هو ذاهب إلى محطة فوتامي نهاية هذا الخط، ويسير من هناك على قدميه في طريق كويا^٢، ليصل كومانو^٣ بعد أن يمر بطريق كوهيجي^٤.

(1) معبد كومانو الكبير: أحد أشهر معابد ديانة الشينتو اليابانية يوجد المعبد الرئيس في وسط الجبال في محافظة واياكاياما جنوب محافظة نارا. يقال إنه أنشأ في عصر الإمبراطور سوجين وهو الإمبراطور العاشر في أسطورة الأباطرة في اليابان، وتقول الأسطورة إنه عاش في القرن الأول قبل الميلاد تقريبا ولكن لا يوجد ما يؤكد وجوده في الواقع وإن كانت بعض الدراسات التاريخية الأخيرة ترجح وجوده وأنه ربما يكون أول أباطرة اليابان. يوجد ما يزيد على الثلاثة آلاف معبد لديانة الشنتو في اليابان تحمل اسم معبد كومانو.

أليس في وجود رفيق الطريق ما يجعلك أنت أيضًا مرتاح البال؟
فعلى كل، طريق كوهيجي تسبب الشعور بالوحدة.
أضاف العجوز ذلك إلى كلامه. على ما يبدو أن لكتته هي لكنة
المنطقة المحيطة بإقليم كاواتشي.
فتح ماساكي مقلتيه عن آخرهما دهشًا.
هل يقصد ذلك العجوز المقرّر أن يطلب مني مرافقته حتى كومانو؟
... لا مزاح في الأمر!

وعندها تكلم ماساكي لأول مرة كلامًا جديًا ورفض العرض.
أنا آسف بشدة، ولكنني لسْتُ أنوي الذهاب إلى كومانو، وذلك
لأنني سأنزل في محطة كوزو.
كان ذلك على ما يبدو ممتعًا للغاية بالنسبة للعجوز. وبعد أن ضحك
بمفرده بصوت عالٍ قال:

ادعك من أيوشينو. أنت ستذهب معي لزيارة معبد كومانو.
عندها أظهر ماساكي ما يدل على نفاذ صبره.
إذا كنت أنت تريد الذهاب إلى كومانو، فهذا شأنك وأنت حرٌّ فيه.
ولكنني ذاهبٌ إلى أيوشينو وهذا شأني وأنا حرٌّ فيه. وليس لك أيُّ حقٍ
في أن تقول لي ماذا أفعل.
عندما سمع العجوز ذلك، ضحك هذه المرة ضحكة من لا يستطيع
كتم الضحك وقال:

إذا كنت تقول ذلك، فمحطة كوزو قد فاتتك منذ زمن بعيد،
والمحطة التالية هي فوتامي.
نظر ماساكي إلى خارج القطار بسرعة. ولكن لم يتمكن من التأكد

بمجرد النظر. وهنا نادى المحصّل الذي تصادف مروره، وأوقفه ليتأكد من المحطة التالية.

الأجل، لم يتبق إلا أفوتامي، آخر محطة للقطار في هذا الخط. تعجّب ماساكي ونظر ناحية العجوز. أظهر له العجوز ابتسامة خفيفة كما هو متوقّع، وهو يراقب وجه ماساكي بحماس. كانت صورة العجوز تشبه كثيرًا شبحًا من الأشباح. كانت لا تشبه من بعيد ولا قريب صورة الإنس. القطار كان في بعض الأحيان يهتزُّ بعنف، وهو مستمر في السير بسرعة عالية. يُسمع من نافذة العربة بصعوبة صوت ضئيل لتسرُّب الرياح.

كلّما تدرّج ماساكي مع الذاكرة تعمّق اضطرابه. فمهما حاول التذكّر، لا تسترجع ذاكرته توقّف القطار في محطة كوزو. هل تخطاها القطار ولم يتوقّف بها؟ لا، هذا مستحيل. إذا كان الأمر كذلك، هل لم ينتبه لتوقفه؟ ولكن، في الأصل، لم تكن كوزو وحدها، بل غاب عن ذاكرته توقّف القطار في أية محطة من المحطات الأخرى. وكأنّ القطار قد وصل من محطة تاكادا إلى هنا في قفزة واحدة. أي نعم، عندما ينظر إلى ساعته يجد أنّه مرّ بالفعل الوقت المناسب لتلك المسافات بين المحطات. إذن.

في ذلك الوقت مرّت بخيلاء أمام عيون الاثنين فراشة خطافية الذيل، كانت قد ضلّت طريقها ودخلت القطار. جناحها بهما نقشٌ ذهبي يحتوي على لون أخضر خفيف، وتوجد علامة عجيبة بلون قرمزيّ على كلّ جناح. وعلى الرأس قرنيّ استشعار يقفان في تأهب ويبدو عليهما الحنكة.

العجوز عندما رآها خاطبها بنبرة لا تختلف عن مخاطبته لنفسه

قائلاً:

«مرحبًا، حتى أنتِ أيضًا أتيتِ إلى هنا لاستقبالنا؟»
ثم بسرعة مدَّ ذراعيه الاثنين، وطَبَّقَ كَفَّيْهِ فقبض عليها.

«... ماذا؟ لا تقلقي إنه قريب جدًا.»

أخيرًا، بعد الوصول إلى «فوتامي» أطلق العجوز سراحها في الهواء
قائلاً لها:

«حذار من أن تضلي الطريق!»

بدأ ماساكي، الذي كان يشاهد هذه النهاية، يشعر أخيرًا أنَّ هذا
العجوز مُخيف.

استاء ماساكي بشدَّة بسبب عدم قدرته على النزول في محطة
«كوزو». فهو أولاً لم يكن راضيًا عن أنَّ هذا العجوز المصبوغ بما يشبه
الجنون، قد سلب انتباهه وأبقاه في القطار. وثانيًا، يأسف كثيرًا لفوات
فرصة لقاء امرأة المظلة مرَّةً أخرى في «يوشينو». عندما تحرَّرت الفراشة
وتطاير من أجنحتها أثرٌ لامع، أحسَّ ماساكي أنَّ شبَّح تلك المرأة أيضًا
اختفى منطلقًا، هو الآخر، إلى السماء. أحسَّ أنَّ ذلك العهد العجيب
الذي تبادلاه معًا، قد ضاع ولن يتحقق. كذلك أحسَّ أنَّ المرأة ومدينة
«يوشينو» كلاهما قد رفضتا. وسبب استجابة ماساكي بشكل عجيب،
لطلب ذلك العجوز بمرافقته إلى كومانو، جاء من ذلك الشعور باليأس
قليلاً، ومن أنَّه فكَّر أنَّ الذهاب لزيارة معبد كومانو الكئيِّب أكثر ملاءمة
لذلك الشعور.

ولكنَّ الذي اختفى مع الفراشة الراحلة، لم يكن شبَّح المرأة فقط.
فبعد أن بدأ السير، تغيَّر العجوز تمامًا ولم يعد ينطق بحرف. بل كان

يسير متوجّهاً إلى الأمام فقط، ومن حين لآخر، يخرج من جيبه ورقة ويهمس بكلمات مبهمة، على ما يبدو هو يكتب شعراً أو أغنية ما. في البداية فرح ماساكي بذلك. وأحسّ في قلبه بنقاءٍ روحيٍّ وإن كان ضئيلاً. ولكن مع الوقت أصبح، على العكس، يشعر بالقلق. فالعجوز يبدو، وهو يتكلم كثيراً، رجلاً غامضاً تماماً. وعندما سكت عن الكلام أصبح ماساكي يعتقد أكثر وأكثر أنّه غير مأمون الجانب.

من أجل ذلك، جرّب أن يسأله بعض الأسئلة غير المهمّة بقدر الإمكان. ولكن على غير المتوقع جاءت إجاباته جادّة. في البداية كان يسأل بهذا الشكل عن أشياء لا قيمة لها، ولكن تدريجياً أخذ المملل يتسلّل إليه، فبدأ يسأل، متخيّراً كلماته، عن أشياء أكثر أهمية. أحد هذه الأسئلة كان عن الطريق. سأله ماساكي إذا كان الهدف هو الذهاب إلى المعبد الرئيسي، ألم يكن من الأفضل السير في طريق «غوجو» باتجاه طريق «نيشيكومانو» الموازية لنهر «توتسوكاوا»؟

وكان سبب ذلك السؤال أنّ ماساكي، بشكل شخصيٍّ، يريد أن يسير في هذه الرحلة وهو يشاهد مياه النهر. ولكن العجوز أجابه بأنّ تلك الطريق تهدّمت بسبب ذلك الفيضان الكبير. وأضاف أنّه ربما يكون قد تمّ إصلاح الطريق الآن ولكن الأسلم استخدام طريق «كوهيجي». بالمناسبة، ما ذكره العجوز بقوله الفيضان الكبير، هو فيضان نهر «توتسوكاوا»، بسبب الأمطار الغزيرة في شهر أغسطس من العام الثاني والعشرين لعصر مييجي⁽¹⁾. كانت الأضرار هائلة، وحدثت انهيارات ضخمة في أغلب الأماكن، ووصل عدد خزانات السدود

(1) العام الثاني والعشرون من حكم مييجي هو عام 1889م

التي انهارت إلى 37 خزناً، ووصل عدد المنازل التي تهدمت بالكامل إلى 426 منزلاً، والتي تهدمت جزئياً إلى 184 منزلاً، وغرقت أراضي زراعية تصل مساحتها تقريباً إلى 227 هكتاراً، ووصل عدد القتلى إلى 168 شخصاً بمن فيهم السيد [تاكايوشي تاماكي] (1) عمدة قرية [أوتشي يوشينو]. ويسجل تقرير لجنة تقصي الحقائق الميدانية وقتها، بكلمات مسهبة الحالة المأساوية للأضرار، فيقول التقرير:

[[انعدمت تماماً مناظر القرى العديدة التي كانت موجودة على ضفاف نهر [توتسوكاوا] قبل الفيضان.]]

أحسّ ماساكي نوعاً ما بأنه فقد حماسه بسبب بساطة ذلك الرّد الذي قاله العجوز. وقال: [[إذا كان الأمر كذلك فلنأخذ طريقاً أعقد قليلاً ونستغل الفرصة لزيارة معبد جبل [كوبا] (2).]]

ولكن العجوز أجاب بنبرة ساخرة:

[[أنا لا أحبّ الرهبان.]]

أحسّ ماساكي بأنّ كلّ الكلمات الكثيرة الأخرى التي كان قد أعدها في حلقة استعداداً لنطقها قد ارتدت جميعاً إلى داخله، مثل

(1) تاكايوشي تاماكي (1837 || 1889): سياسي ياباني ولد عام 1837 لأسرة من الساموراي. أصبح في عام 1880 عمدة قرية أوتشي يوشينو مات عام 1889 في الثانية والخمسين من عمره ضمن ضحايا الفيضانات الضخمة التي حدثت في المناطق حول نهر توتسوكاوا بسبب الأمطار الشديدة والإعصار التي ضربت تلك المنطقة في شهر أغسطس من ذلك العام.

(2) معبد جبل كوبا: معبد بوذي يوجد في محافظة واكاياما أعلى قمة جبل كوبا الذي يبلغ ارتفاعه حوالي الألف متر عن سطح البحر، أنشأه الراهب الكبير كوكاي في حوالي عام 819 ميلادي. وتربط طريق كوهيجي بينه وبين معبد كومانو الرئيس كطريق للحج في الفترة التي ارتبطت فيها البوذية مع ديانة الشيتو ارتباطاً وثيقاً.

الذي يمسك حبلاً بيده ويشده بكل قوّة ثم فجأة يُترك الحبل من الجهة الأخرى، فيسقط ممسكه وتلتصق أردافه بالأرض.

في ذلك اليوم، أخذ ماساكي غرفة مع العجوز في نُزل، وانطلقا مبكرًا من هناك في صباح اليوم التالي، وسارا في طريق جبل كويا¹ من دون توقُّف، حتى وصلا إلى نُزل أوئيشي². أثناء الطريق، كما هو متوقَّع، كان العجوز قليل الكلام، ولكنه أحيانًا يتذكَّر أحاديث تخصُّ رحلاته السابقة، ومن دون أن يتوجَّه لأحد، تجده يهمس لنفسه بما يشبه المعاناة كلمات من قبيل:

«أتأمرنى أن أمرَّ على طريق السفر هذه مرَّةً أخرى؟»

لم يكن ماساكي حتى ذلك الحين قد أخبر العجوز باسمه. لم يخبره، لأنَّ العجوز لم يسأله. ومن جانبه، العجوز كذلك لم يخبر ماساكي عن اسمه. وهذا أيضًا بسبب أنَّ ماساكي لم يسأل العجوز عن اسمه. وهنا قام ماساكي بتعريف نفسه للعجوز بإضافة كلمات مناسبة إلى اسمه، ثم حاول أن يسأل العجوز عن اسمه.

قال العجوز:

«ألا تعرفني؟ أنا توموباياشي روكورو ميتسوهيرا⁽¹⁾.»

ماساكي أصابه الرعب. وعاد لينظر إلى الخلف تجاه ذلك الوجه.

(1) ميتسوهيرا توموباياشي (1813 || 1864): كاتب وشاعر وأحد علماء اليابان الكبار في نهاية عصر إيدو. اسم الشهرة روكورو² من المحبين للنظام الإمبراطوري. عندما وقع صراع تن تشو في عام 1863 أسرع بالذهاب إلى مدينة غوجو وشارك مع جماعة تن تشو وكان هو مسجل الأحداث وكاتب الجماعة. ألقى القبض عليه ورُحِّل إلى كيوتو وأثناء سجنه كتب سجلات الأحداث في كتاب باسم «سجلات الحرب في جبل الجنوب». أعدم بضرب عنقه في شهر فبراير من العام التالي.

العجوز أضاف إلى ذلك:

«من جماعة «تن تشو»⁽¹⁾».

وضحك بصوت عالٍ راضيًا، بشكل كامل، عما أحدثه كلامه من دهشة للفتى.

بالطبع لم يصدق ماساكي ذلك القول. ولكنه كان يعتقد أن العجوز يمزح مزاحًا كريهًا. ولم يكن رعب ماساكي بسبب اعتقاده أنه يسافر في رحلة مع روح شخص من جماعة «تن تشو» كان قد أعدم بضرب عنقه، ولكن لأنه لاحظ ظهور علامات الجنون مرّةً أخرى على وجه العجوز. وبعد أن أدرك خطورة مواصلة السفر بصحبة هذا الرجل، كان يفكر في طريقة للهرب بشكل ما خارجًا بمفرده ليلاً من نُزل أوئينيشي.

حسنًا، في أوئينيشي استطاع ماساكي الافتراق عن العجوز بالفعل بتخطيط جيّد. ولكن تفاصيل ذلك اختلفت كثيرًا عما كانت عليه خطته الأولى. يمكننا القول إنّ الأمنية تحققت معكوسة.

فقد استيقظ ماساكي في صباح اليوم التالي أخيرًا، بعد أن أيقظته صاحبة النُزل التي قلقت من نومه لفترة طويلة، حتى بعد أن ارتفعت الشمس إلى كبد السماء إلى درجة تضاعف معها ظلُّ سقف النُزل وأصبح صغيرًا.

ولكن لا حيلة في ذلك، لأنّ طالب طوكيو الذي يشكو من الوهن

(1) جماعة تن تشو: تجمع يتكون من حوالي أربعين من المحاربين الساموراي الشباب الذين تركوا قيادتهم وقرروا محاربة حكومة إيدو في عام 1863. ولكنهم اعتبروا متمردين على الحكم الشرعي وقاتلتهم القوات الحكومية بشراسة وألحقت بهم الهزيمة تلو الهزيمة حتى تم القضاء عليهم تمامًا ولم يبق منهم أحدا. ولكن كانت حركتهم أول مسبار في نعش حكومة إيدو العسكرية التي انهارت بعد خمس سنوات وتولى الإمبراطور الحكم.

العصبي، جاء إلى هنا متخطياً قمة جبل أوباكو، تقريباً، بخطوات سريعة، يهرول دون أي استعداد مسبق. بالإضافة إلى أنه في الليلة الماضية، ظلّت جماعة من الناس كانوا في طريقهم لزيارة معبد كويال، حتى وقت متأخر منهمكين في الغناء والحديث الصاحب، لذا فالوقت الذي استطاع فيه ماساكي الخلود إلى النوم كان بعد أن أسودّ الليل بوقت طويل.

عندما نودي على ماساكي، وكما يفعل عادة عند تأخره في النوم، فتح عينيه للحظة بأقصى حد لهما، ثم قفز إلى ساعة الجيب الموضوعة على رأس الوسادة.

كانت العقارب قد تخطت بالفعل الساعة العاشرة.

بعد أن أعلن عن تدمره بلسانه قليلاً، نظر إلى الفراش المجاور. فلم يجد أثراً للعجوز. وقد تمّ رفع الفراش، وكذلك غاب متاع العجوز.

﴿معدرة، أين العجوز الذي كان نائمًا هنا؟﴾

مع قليل من الشكّ سأل ماساكي مالكة النزل.

أجابت مالكة النزل بعد أن تردّدت قليلاً تجاه ذلك السؤال:

﴿لقد غادر ذلك الرجل النزل بالفعل منذ الصباح الباكر.﴾

﴿غادر؟﴾

﴿أجل. أنا أيضًا تأكّدت منه وسألته على أيّ حال:﴾ والشخص المرافق

لك، أهو بخير؟﴾ فقال: ﴿لا مانع من الرحيل بدونه، إنه شخص تعرّفت

عليه فقط لفترة في الطريق إلى هنا. ورغم ذلك فقد دفع أجره شخصين

قبل أن يذهب.﴾ ثم قال وكأنّه يكلم نفسه: ﴿هذا الشخص لا يجب الوثوق

به.﴾، ولذا فقد أصابني القلق... ولكن هل كان من الأفضل أن أخبرك

بذلك في وقته؟!]

]].... لا ... إذا كان الأمر كذلك فلا بأس.]]

هكذا ردّ ماساكي على أي حال. ثم بعد ذلك ارتفعت ضحكاته تلقائياً.

]]على أيّ حال، فراقى ذلك العجوز أمر جيّد. ولكنّ حكايته تثير الدهشة!]]

بعد أن خرجت مالكة النُّزل، ظلّ ماساكي شارد الذهن، يفكّر في أنّ مَثَلُ]خدعه ذئب⁽¹⁾ والذي يعبر عن الدهشة، قد ولد عندما صادف أحد القدماء موقفاً مثل هذا. ثم فكّر فجأة وهو يقوم بتغيير ملابس النوم كما يلي:

]]ولكن رغم قول ذلك، وحتى لو كان ذئباً، فهل يخدع الناس فقط دون أن يكسب من وراء ذلك أيّ أموالٍ؟ ... بل إضافةً إلى ذلك، فقد دفع لي أجرة النُّزل!...]]

ولكنّ ذلك الأمر ولّد داخله شكاً لم يكن قد فكّر فيه من قبل. ثم قام ببطء وتؤدّة بوضع يده متحمّساً حقيبتة الذي أتى بها معه، وتأكد من محتويات حافظة نقوده. ولكنّ النقود لم تُمسّ. وخارج الحافظة، يوجد فقط أحدث أعداد مجلة]ميزاماشي جوسا⁽²⁾ والمنشور فيها رواية]الشاعر المرتجل⁽³⁾، وكتاب]رحلة حج تشايلد هارولد⁽⁴⁾ للورد

(1) خدعه ذئب: مثل ياباني يشير أن موقف الدهشة الكبرى من موقف حدث للشخص. وهو يأتي من الأساطير اليابانية القديمة التي تؤمن أن حيوانات مثل الذئب والراكون لها القدرة على التحول إلى شكل بشري لخداع الإنسان أو السخرية منه.

(2) ميزاماشي غوسا: مجلة أدبية في عصر مييجي، بدأت شهرية في يناير من عام 1896 وأصبحت فيما بعد غير دورية. آخر عدد لها صدر في فبراير من عام 1902 حمل رقم العدد السادس والخمسين. كان يقوم برئاسة التحرير فيها الأديب أوغاي موري.

(3) رواية الشاعر المرتجل (|||||): رواية للأديب الدناركي هانس أندرسن

[[بايرون]]⁽¹⁾. بالطبع بحالهما من دون أن تمسهما يد.

ماساكي مع ارتياحه واطمئنانه، أصبح في النهاية لا يفهم الأمر برمته، ومرّة أخرى أعاد التفكير، لا بُدَّ وأنَّ الذئب قد سحره بالتأكيد. أو أنّه قد تحوّل إلى حيوان راكون؟ ثم على أيّ حال، التفكير بأن ذئبًا قد خدعه، أكثر احتمالًا بكثير من التفكير أنّ ذلك العجوز كان شبّاحًا لروح عضو جماعة [[تن تشو]].

حسنًا، بعد هذه التفاصيل العجيبة، ماساكي الذي رحل عن [[أوينيشي]]، وأخذ يسير مرّة أخرى في طريق [[كوهيجي]]، أحسَّ بأنّه استطاع أخيرًا الحصول على استجمام السفر الذي كان يشاق إليه، وشعر بمتعة كبرى داخل قلبه.

لا يوجد تغيير في المقصد النهائي للرحلة. لقد فكر لمرّة في تغيير اتجاهه والعودة لزيارة معبد [[كوبا]]، ولكنّه بعد الوصول إلى هذا الحد اعتبر أن العودة ستكون خسارة لما بذله من جهد، فرجع عن تفكيره هذا وقرّر المضي في طريقه إلى المعبد الرئيس.

السماء الزرقاء كانت هادئة لا غيم فيها وتحتلها أشعة الشمس بالكامل. تختلط خضرة الجبال بالعديد من الظلال، وكلّما ارتفعت

الشهير بكتابة قصص الأطفال، نشرها لأول مرة في عام 1835 وهي رواية رومانسية تحكي قصة رحلة أندرسن شخصيا إلى إيطاليا.



(1) اللورد بايرون (1788 || 1824): جورج غوردون بايرون شاعر روماني إنجليزي ولد في لندن، حصل في العاشرة من عمره على لقب اللورد بايرون خلفا لجدّه. درس في جامعة كمبردج ولكنه ترك الدراسة مفضلا الذهاب في رحلات سفر متجولا بين أوروبا والشرق الأوسط من أشهر أعماله الرحلة حج تشايلد هارودا و[[ادون جوان]] و[[مانفردا]] و[[انبوءات دانتى]]. مات بالحمى في عمر السادسة والثلاثين.

الخضرة إلى الأطراف ظهرت تدريجياً ألوانها زاهية وهي تستقبل أشعة الشمس الذهبية. قمم الجبل المتطرّفة كأنّها ترفض الاختفاء في الأفق البعيد، فتظهر رفيعة ضئيلة. من حين لآخر، يُضيف صياح الوقواق، في تلك القمة البيضاء، إليها هدوءاً وسكينة.

بعد أن تخطى ماساكي ساندايا ووصل إلى ميورا، بدأ يحس أن لديه مُتسع من الوقت.

خلال الطريق أخذ يتأمل نباتات السوسن والأوركيد وبنفسج الكرز التي تفتّحت زهراتها بحياء، ممّا أسعد مقلتيّ عينيه وتوقّف مرّات عديدة أمام تلك المناظر التي يجذب إليها القلب تلقائياً. اكتشف وجود زهرة عدّاء الراشومون⁽¹⁾ تذكّر أحد الأقدمين الذي يقال إنّه قد شاهد كفّ جيّنة مقطوعة، ملقاةً وسط هذه الزهور ذات اللون البنفسجي المتضافرة في عدّة طبقات، فغرق ماساكي في تحليلاتٍ لا نهاية لها.

عندما أصبحت الشمس مائلة قليلاً، وقد وصل أخيراً إلى تقديرٍ لوقت تجاوزه الجبل، قام ماساكي بملاً كفيّه من الماء النقي الذي يتدفّق نابغاً على حافة الطريق، وروى به عطشه، ثم جلس في الجوار مريحاً قدميه لفترة في مكان منعش فوق تلة من الأحجار تحت ظلّ



(1) زهرة عدّاء الراشومون (الاسم العلمي ): هي زهرة من الفصيلة الشفوية (اسمها العلمي ) لها ساق يبلغ طوله من 15 سم إلى 30 سم. تقترب أوراقها من الشكل المثلث، تفتح الزهرة ما بين شهري أبريل ويونية، ويكون لونها بنفسجي فاقع. يكثر وجودها في اليابان والصين وشبه جزيرة كوريا.

أشجار زهور الويستريا⁽¹⁾. لم يكن يشعر بإرهاق كبير، ولم يكن هناك سبب قوي يحتمُّ عليه الراحة، ولكنه بمجرد أن وضع الماء في فمه، تدفَّق منه العرق وكأنَّ الماء ينضح كاملاً من جميع أجزاء جسمه. وهو ما قتل فيه تلقائياً كلَّ رغبة في التعجُّل بالذهاب دون سبب.

ورغم ذلك، فقد توقَّف في هذا المكان لمدة نصف ساعة.

لقد أسكره إحساس وجوده منفرداً وسط هذه الطبيعة الخلابة. منذ رحيله عن أوئينيشي وحتى وصوله إلى إيموزيه كان الناس ذاهبون وآتون سواء زوّار معبد كويا أو عمّال مدينة كادوشين، وكانت في الطرقات حيويّة ونشاط يناسبان ذلك، ولكن بعد قليل، وبشكل عجيب، انقطعت أرجل الناس عن الطريق، وبعد أن جلس هناك منذ قليل، لم يمر من أمام ماساكي أحدٌ إلا شخصاً يخاطب مرافقه الوحيد بصوت عالٍ قائلاً: أوهاشيرو تاكيهارا⁽²⁾ ذاك....!

أخيراً، رفع ماساكي خصره متثاقلاً وبدأ السير مرّةً أخرى. وفي اللحظة ذاتها مرَّ ببطء من أمام وجهه شيءٌ ما. وعندما نظر جيداً، كانت الفراشة خطافية الذيل سابقة الذكر. كان على جناحيها زهرة باللون القرمزيّ فوق أرضية ذهبية مزركشة متفتّحة قليلاً. وبعد أن ررفت

(1) زهور الويستريا (الاسم العلمي ) وتعرف عامة باسم الويستريا اليابانية. زهور من فصيلة البقوليات (اسمها العلمي ) يتراوح طولها من 20 سم إلى 80 سم ولونها بنفسجي فاتح. ولا توجد إلا في اليابان على الأغلب ولذا تسمى الويستريا اليابانية.

(2) هاتشيرو تاكيهارا (1276 - 1347): من محاربي الساموراي الذين اشتركوا في الصراع أثناء الانقسام بين الشمال والجنوب. كان من كبار الساموراي في قرية توتسوكاوا الذين حموا الأمير موريوشي أثناء هروبه من جيوش حكومة كاماكورا العسكرية. وأقام الأمير موريوشي في بيته فترة تزيد على الستة أشهر.

بجناحيها مرتين أو ثلاث مرات، وكما لو كانت ورقة شجر، بدأت الطيران في اتجاه مائل. بلا وعي تابعها ماساكي بعينه. بالطبع هو لم يعتقد أنها الفراشة نفسها. ولكنَّ العلامة الحمراء النادرة التي انعكست سريعًا على حدقة عينه، كانت مشابهة تمامًا لعلامة الفراشة التي أطلق العجوز سراحها في الهواء، وهو ما جعله ينجذب إليها.

في البداية كان الأمر يقتصر على ذلك. ولكن أشكال الفراشات التي تتراقص في الطرقات في وسط النهار، استولت تمامًا على قلب ماساكي. لقد قالت له عاملة النُّزْل في أوئينيشي^١ إنه على الأغلب يستطيع الوصول إلى المعبد الرئيس في غضون يوم. ولكنَّ الرحلة، في الأصل، بلا مقصد نهائي. ولذا، لا مانع من التأنِّي، والسير ليومين أو لثلاثة أيام وعدم التعجُّل بهذا الشكل. بالتأكيد، يوجد حتماً نُزْل أو مكان يستطيع المبيت فيه لو ذهب إلى منطقة الينابيع الساخنة في جويو أونسن^٢، أو قبل ذلك في إينيشيناكا^٣ أو تاماغايتو^٤. ولحسن الحظ لا زال هناك متسع في ميزانية الرحلة، إذا كان الأمر كذلك. هكذا وأثناء تفكيره بهذا الشكل، أحسَّ بأنَّ حماسه تزداد وسار بطفولية وراء الفراشة، وكلَّما تأمَّلها، جذبته جمالها الذي لا مثيل له، أيضًا، شكلها الذي يبدو كأنه يقوم بإغرائه، وبطريقة ما يبدو وكأنه غير مبالٍ، يتطابق مع امرأة المظلة التي كان ماساكي على وشك نسيانها، وأخيرًا تبعها بشكل لا يلائم شخصيته، وعندما اجتاز الأحرار منحرًا عن الطريق، ضلَّ ماساكي طريقه سريعًا وهو في أعماق الغابة الواسعة.

وكانت تلك هي الصدفة الأخيرة...

... على أيِّ حال، بدأ ماساكي السير تجاه طريق الجبل، وهو يبعد

عينيه ببطءٍ عن أشعة الغروب.

لا يستطيع ماساكي بأيِّ حالٍ تذكُّر الطريق التي سلكها حتى وصل إلى هذا المكان. من خلال الجروح المتبقية في ذراعيه الاثنيْن، يعلمُ إلى أيِّ مدى كانت الطريق وعرة، ولكن لماذا يأتري لا يتبادر إلى خياله منظرٌ واحدٌ من المناظر التي مرَّ عليها خلال تلك الفترة؟ المنحدر شديد الميَّلان. وموضع الأقدام خَطِر. إذا كان الحال كذلك، فقدرتَه على الاستمرار في ملاحقة الفراشة من دون توقُّف، ومن دون أن يتحوَّل الطريق في المنتصف، فجأة، إلى هوة، يُعتبر شيئاً عجيباً على نحوٍ ما. ثم اختفى الآن أثر الفراشة تماماً.

وعندما أدار ماساكي رأسه في ما حوله تنهَّد متأسِّباً.

لا يوجد هنا أيُّ أثرٍ لبقية المناظر التي شاهدها على جانبي الطريق الرئيسية. أشجار البلوط المترعرعة في كلِّ أركان المكان، مع تمايلها واختلاطها، تكشف فاضحة جذوعها الغريبة التي تشققت وقد أصابها العفن الأخضر، وتضافر عليها اللُّباب، أو نزعت الحيوانات والطيور لحاءها. يبدو منظر الأزهار اللانهائية التي تدلَّت من الفروع في أشعة الغروب وكأنها حشرات حمراء وسوداء. وأحياناً عندما تهبَّ ريحٌ خفيفة، تهتزُّ قليلاً تحت حفيف الأغصان.

بدأ الليل في الاكتمال. يتراكم الظلام وسط الجبل من عمق إلى عمق، وهو يبتلع سريعاً العقب ثم يبتلع الركبة وعندما تتنبَّه تجده قد اقترب ووصل إلى الصدر. ورغم ذلك فحركة امتداد الظلام لا تتوقف. تبتلع العنق، ويتعد كثيراً فوق الرأس ليملاً طبقات عدَّة، فيبتلع الجبل، ويبتلع ضباب الليل، وأخيراً، يحاول أن يبتلع السماء بأكملها. وفي

النهاية العالم كله يغرق في عمق الظلام، مثل الأسماك التي ماتت في البحر العميق، ولم يعد قشرها الرفيع يلمع تحت ضوء القمر، ولكنها تتمنى الوصول إلى سطح الماء.

أوراق الشجر المتعفنة التي لا يُعرف كم مرَّ عليها من الأعوام وهي تتراكم فوق الأرض، مع الرائحة العفنة الرطبة الذائبة بشكل غريب في رائحة حمض سُكَّرِي، ومصاحبة للمرونة التي تحاول بلا طائل مقاومة الضغط، إلاَّ أنَّه في كلِّ مرَّة تدوسها بقدمك تعطيك إحساسًا خادعًا مقززًا وكأنك تطأ جثة ميِّت أسفل القدم. تُؤخذ الأقدام في تلويُّ الهبوط والصعود، ولذا عندما تضيف قوَّة غير مقصودة أحيانًا، تُصدر أعوادٌ من أفرع الشجر، التي لم يكتمل تعفنها، صدى صوت يسمعه ماساكي في باطن قدمه، كأنَّ عظامًا صغيرة يتم دهسها.

وفوق رأسه، يستمر صياح طيور الوقواق على فترات متتابة مختلطًا مع أصوات البلابل. وهو ما يسبب ألمًا بشكل ما. فهو صوت صافٍ ورائقٍ إلى درجة الألم.

مع استمراره في السير أخذ ماساكي يتتبع، مرَّةً أخرى، أثر الطريق في ذاكرته حتى وصل إلى هنا. هذه المرَّة أحسَّ بقدرته على تذكُّر مقاطع لمناظر مختلفة. ولكن للأسف لم يصل الأمر إلى حدِّ التأكد من ترتيبها. في الأصل، بعد أن عكس وجهة سيره، والمناظر التي يراها لا يوجد بينها منظر واحد يرتبط بما في الذاكرة. فإنه إذا مرَّ بمكان ما ولو مرَّة واحدة، فمن المفترض أن تسحب علامة ما من علامات ذلك المكان شبكة الذاكرة الضبابية تدريجيًا وتقربها من وعيه بحيث يتوقع ما ستراه العين بعد قليل. ولكن هذا الأمر لا يحدث معه مطلقًا. فكلمًا

ظهرت أمامه أشجار أو حشائش، كان يحس كأنه يراها لأول مرة. أثناء السير تذكر ماساكي ما حدث للقطار عندما مرَّ بمحطة كوزو من دون أن يتوقَّف، عندما ركب القطار من تاكادا فوصل إلى فوتامي، كانت حالته وقتها مشابهة لما هو عليه الآن. وكأنَّ أحدًا ما قد قفز به بعيدًا عن دورة انسياب الزمن في تلك الفترة فقط. بالضبط مثل الفراشة السالفة الذكر، التي ضلَّت طريقها إلى داخل القطار، وأثناء طيرانها من طرف العربة إلى الطرف الآخر، مرَّ القطار وتوقَّف في محطة أو محطتين، لتجد أنها خلال تلك المسافة الضئيلة للغاية قد حُمِلت إلى أرض تجهلها تمامًا. وعندها أصاب ماساكي الدهول فجأة من أحد الأحداث المشؤومة التي تذكرها.

[[ذلك اليوم الذي قابلتُ فيه المرأة ذات المظلة، ألم يكن على قبة المرأة حافة بيضاء؟ ... آه، نعم، هو كذلك كما توقعت. لقد نسيتُ تمامًا ذلك الأمر حتى هذه اللحظة، لو أنَّ ما أتذكره صحيح، فقد سبق لي أن قرأتُ في كتابٍ ما حكاية متوارثة في أيرلندا، عن قصة رجل قابل امرأة ترتدي قبة عليها حافة بيضاء، ثم مات بعد اللقاء بستة أشهر...]]

مع تلك الذكريات، عادت فجأة ملامح وجه المرأة إلى وعي ماساكي. بعد ذلك، رأى الفراشة خطافية الذيل وهي تطير إلى عنان السماء، ثم كفي العجوز اللتان أطلقتا سراح الفراشة، مع طرفه عين المرأة، الفراشة التي انطلقت طائرة تُخفي أجنحتها ما تحمله في ظهرها من رسومات وعلامات، ثم كفي العجوز تغلقان في الهواء ممسكة بالفراشة. في لحظة تختلط وتبدل اللقطات الثلاثة، وعلاوة على ذلك، محطة شينباشي، وعربة الدرجة العادية، وطرق الكوهيجي، ونزل

أوثينيشي وجبل ميورال، تتلامس كل تلك الصور لتظهر ثم تختفي.
وهنا فُكّر ماساكي لأوّل مرّة في ترابط كل تلك الصدف ببعضها. ثم
تدريجياً وبشكل متسارع بدأ القلق يتسرّب إليه، وتعمّد أن يحدث نفسه
بنبرة غضب متشنجة:

... يا للغباء. ماذا تعني تلك الحكاية الخرافية؟ في المقام الأول، لم
يمرّ على لقائي بتلك المرأة أسبوع، فما بالك بستة أشهر... وبالإضافة
إلى ذلك، المكان الذي أنا موجود فيه الآن وسط أحد جبال محافظة
نارال، وليس أيرلندا بأيّ حال... سحقا، ما الذي أصابني يا تُرى؟...
ولكن حتى تلك السخرية من الذات لم تواسّ مشاعره مطلقاً.
... عندما نظر إلى الأمام أحسّ وكأنّ الليل قد تراكم أكثر وأكثر.
وأصبح موضع أقدامه مشكوك فيه. اشتبكت أقدامه مع جذور الأشجار
التي برزت فوق الأرض، وعندما وضع يده من دون وعي على جذع
الشجرة سمع تحت راحة يده صوت انسحاق حشرة، فسحب يده على
الفور. في بطن اليد تبقى سائل أصفر مخضّر على شكل بقعة صغيرة.
حسناً، قابلت تلك المرأة منذ أيام قليلة، وإضافة على ذلك، لستُ
في أيرلندا.

رفع ماساكي وجهه وهذه المرّة فُكّر هكذا، ولكن من دون أن يصدر
عنه صوت. ثم واصل تفكيره فجأة:

لكنّ الزمان والمكان بالنسبة للحالة التي أنا فيها الآن مشكوك
فيهما تماماً.

وعندها، رأى ماساكي على مرمى البصر أمامه نقطتين باللون
القرمزي تلمعان مثل ثمرتيّ حرنكش أحمر.

«... هل هذه هي الفراشة نفسها؟»

ولكنها في اللحظة التي حاول الاقتراب منها، طارت سريعاً مع حركة قدمه اليمنى، كانت سرعتها مثل السهم.

«آه... آه!»

ألمٌ عنيف يقترب من حدِّ فقدان الإحساس ألهب قدمه. تسارع نبضه، وانساب عرق بارد فوق ظهره.

لمع ما أمام عينيه وكأنه في وضوح النهار. منبع الألم كان نقطتين بلون قرمزي تضيئان في ريب. ومهما ركل الهواء بقدمه لا تفقد تلك الإضاءة لمعتها. يهزُّ قدمه بعنف. ثم يهزها مرّةً أخرى. يهزُّ قدمه اليسرى. يتبخر العرق، الذي ينزل من جميع أنحاء جسمه، سريعاً كالندى. الجبهة تفقد حرارتها تدريجياً. ومع رفع نبرة تأوّهاته، هزَّ قدمه اليمنى هزةً كبرى، فجأةً، موضع قدمه غرق في ظلام تام، انخفضت الحرارة قليلاً في لحظة وكأنه قد لمس قطعة من الثلج.

زحفت قشور جافة تمسح بخقّة على الكاحل.

سقطت ركبتي ماساكي على الأرض من شدّة الدوار. إنّه يتنفس بعنف. ضربات الصدر أيضاً عالية. وعندما مدَّ يده التي ترتعش بشدّة إلى ساقه انزلقت أنامله على شيء لزج.

كانت الدماء تتدفّقُ بقوة.

«هل سأموت هنا؟»

اليد التي تمسك فتحة الجرح، ضغطت عليه بقوةٍ لتخرج الدماء. ثم قامت اليد الأخرى بالبحث بعصبية وتسرع عن الحقيبة، ثم بالبحث داخلها عن منديل فقبضت عليه بقوة، وبعدها فقد ماساكي وعيه وهو

على هذا الحال...

في وسط الصمت الرائق الذي يسود المكان، كان صدى صوت
الوقواق يتردد قوياً جميلاً.

تخلّص الليل أخيراً من بقايا الغروب. ولكنّ القمر لم يكن قد ظهر
بعد في قلب السماء ذات اللون الأرجواني المائل للزرقة.

الآن، يوجد جسد شاب قد سقط على وجهه مغشياً عليه في وسط
جبال أو سن داهه. ثم ظهر ظلُّ لشخصٍ آخر يطيل الوقوف بجواره،
في غموضٍ تام.

... عندما فتح ماساكي عينيه وجد أنّه يرقد في الفراش. وعيه الذي
عاد إليه أخيراً بشكل ضبابي، وكأنّه مثل البعوضة التي يصل صوتها
فقط من بعيد، ثم يقترب صوتها ببطء تدريجياً، ثم يتوقف فجأة، ويبدو
وكانّه سيذهب طائراً مرّةً أخرى مرتنحاً.

أين أنا؟ وما هذا المكان؟....

يعرف أنّه داخل غرفة ما. ولكن لا توجد أية إضاءة ولا يستطيع
التعرف على حال الغرفة. لأنّ الظلام قد استولى على ما يحيط به من
ضوءٍ وظلٍّ، إلى الدرجة التي تجعله يعتقد أنّ غلق جفونه والتأمل في
باطنها سيكون أكثر لمعاناً وإنارة من الغرفة.

ولمّا حاول النهوض من الفراش، هجم عليه فجأة صداد شديد.
وعندما يئس من عدم وجود حيلة، حاول ليّ عنقه قليلاً لتأمّل ما حوله،
تدريجياً بدأت العين تعتاد على الظلام، وأصبح يتعرّف، على الأقل،
على ظلال الأشياء.

على ما يبدو هي غرفة بمساحة أربعة حصيرات ونصف من التاتامي، هكذا استطاع ماساكي التخمين. ثم بعد ذلك انتبه إلى أنّ حقيبة السفر التي ظلَّ يحملها أثناء الطريق موضوعة بجوار الوسادة. لمست يده التي مدّها إلى الحقيبة قليلاً من الطين الذي لوّث أسفلها.

«... آه، أجل، أجل لقد فقدت الوعي عندما كنتُ في ذلك الجبل، ... وبعد ذلك، ... بعد ذلك، ... للأسف لا أعرف ماذا حدث بعد ذلك. ... ولكن على أيِّ حالٍ ما دمْتُ بهذا الوضع، فهل أنقذني شخص ما؟...»

بعد فترة من الوقت، سُمع صوت احتكاك خُفِّ القش بالأرضية. يقترب ببطء شديد. أخيراً، انقطع الصوت، وفتُح الباب في هدوء. وأنبئت الغرفة بإضاءة قوية.

«أراك قد عاد إليك وعيك.»

كان الذي اقترب منه، ورفع الشمعة ليتفحص وجهه، رجلاً حليق الرأس تماماً، وقد تخطى بشكل أو آخر الستين من العمر. «... نعم، ... ولكن أين أنا الآن؟»

«أنت وسط جبلٍ أو سنٍ داكه» الذي ضللت الطريق فيه. لقد حملتُك أنا إلى هذا المعبد بعد أن فقدت وعيك بسبب لدغة ثعبانٍ سام، على الأرجح من نوع الماموشي.»

«حقاً؟ ... ثعبانٌ سام؟ ... لا أدري حقاً كيف لي أن أشكر لك صنيعك هذا؟»

منع الرجل ماساكي الذي كان يحاول النهوض بصعوبة قائلاً له: «موضع اللدغة به قطعٌ غائرٌ جداً، وقد نزفت دماً كثيراً. كثيراً ما

يحدث ذلك في حالة عضه الكلب مثلاً، يتسرّع العضوض ويحاول أن يجذب يده، هذا هو ما حدث على ما يبدو. ولكن على العكس، ربما كان ذلك سبباً في خروج السم مع الدم النازف. فحتى لو قلنا إنه ثعبان ماموشي فلا يجب الاستهانة به. أنت شخصٌ محظوظ للغاية. ۞
حقاً؟ ۞

سكت ماساكي لبرهة بعد أن قال ذلك، ثم واصل كلامه:
هل هذا المكان يبعد كثيراً عن معبد كومانو الرئيس؟ لقد كنتُ في طريقِي إليه. ۞

أجل المعبد الرئيس لا يزال بعيداً باتجاه الجنوب. هل كنت تسلك طريق كومهيغي؟ ۞
أجل هو كذلك. ۞

إذا كان كذلك، فعلى الأرجح أنك أخطأت الطريق من جبل ميورا، وأخذت، مخطئاً، جسر هياكوتشو. فلو كنت واصلت السير على نفس الطريق لكان من المفروض أن تصل إلى كوتاني. ۞
آه، فهمت، لهذا السبب انقطع مرور الناس فجأة عند ذلك المكان... هل هذا ما حدث؟ هل أخطأت الطريق؟ ۞

تذكر ماساكي مع هذا القول منظره وهو يطارد الفراشة، ولم يستطع أن يمنع ضحكة مريرة لا يمكن التمييز بينها وبين التنهد.
لقد كنت تصدر أصواتاً وتعاني أثناء نومك، ربما بسبب السم. على الأرجح أنت كنت ترى أحلاماً مزعجة وكوابيس. ۞

أحلام مزعجة؟ ... إذا تحدثنا عن الأحلام، فكل ما مرَّ عليَّ حتى اليوم، يبدو لي وكأنه أحلام... تلك المرأة، وذلك العجوز، وكذلك

الفراشة... ۞

وعندما أتبع ماساكي كلامه هذا بتنهيده خمول، انفرجت لأول مرّة
أسارير الراهب العجوز وردّ بسؤال:

«أهذا ما رأيته حتى اليوم؟»

«أجل. فخلال اليومين أو الثلاثة أيام الماضية حدثت لي عدّة أحداث
غريبة بشكل مستمر. ۞

«فهمتُ. إذا كان الأمر كذلك فربما تكون جميعها أحلامًا. ۞

«ماذا؟»

«أي نعم، فأنت ترقد في هذا الفراش منذ ثلاثة أيام وثلاثة ليالي. ۞

«ثلاثة أيام؟... حقا؟... ألهذا السبب أحسُّ بالجوع؟»

مرّةً أخرى ضحك ماساكي ضحكة وكأنّها زفرة أسي.

وهبّت على خديه حزمة ضئيلة من نسائم الليل التي دخلت من
الباب بعد أن تخطت حديقة المعبد. وأغمض جفونه بسبب إحساسه
بالممتعة.

«لا مانع من أن تظلّ كما أنت على هذا الحال. ولأنّنا في وسط الجبال

فلا يوجد أشياء فاخرة، ولكنّي توقّعت أن تسترد وعيك هذه الليلة، ولذا

أعددت لك حساء أرز ساخن. سأقوم بإحضار أواني الطعام، انتظر كما

أنت على هذا الحال قليلاً. ۞

بعد أن غادر الراهب العجوز الغرفة، ظلّ ماساكي وحيدًا يسمع في

هدوء وقع أصوات أقدام الراهب وهي تبتعد.

كان الليل هادئًا إلى درجةٍ عجيبة.

«ألا تكون تلك اللحظة بالذات استمرارًا للحلم الذي لم أصحّ منه

بعد؟» ۞

تسلَّل منظر الهلال من النافذة التي فُتحت أثناء مغادرة الراهب، وقد اتخذ شكل الحاجب وكأنَّه رُسم سريعاً بريشة رفيعة. تتألَّق تحت ضوءه الخافت للغاية، مقلتيّ ماساكي اللتان فُتحتا مرَّةً أخرى، بجمال صافٍ ومرهفٍ وكأنَّهما بيضُ حيوانات بحرية. وكأنَّها الأمواج الرفيعة التي تغسل شاطئ البحر، التي تتقاذف متتابعة على الشاطئ ثم ترتدُّ، ولا تجفُّ الجفون ذلك البلل. لا يوجد في ذلك الوجه الذي أصابه الذبول، إلَّا تينك العينين هما فقط المشبَّعتين بجمالهما القديم حتى الآن بلا تغيُّر.

بالطبع، ماساكي شاب وسيم وجميل الوجه. ولكن ذلك الجمال، كان جمالاً عجيبيًا يوجد في مكان ما بعيد. على سبيل المثال، يتَّم التعبير أحياناً عن الشياطين والأسورا⁽¹⁾ في اللوحات والتمائيل الفنية بصورة أكثر جمالاً، بشكل ملفت، من باقي المخلوقات. القوَّة التي توجَّه ناحية كائن ما من المعبودات مثل الآلهة والساكرا⁽²⁾، تزيل القبح والقذارة الموجودة في الأصل تمامًا، وأحياناً، تظهر في هيئة تلتحف بقوة جذب عنيفة للغاية. جمال ماساكي، لو شئنا الدقة، كان جمالاً من هذا النوع.

(1) الأسورا: هي كائنات أحد العوالم الست التي تعتقد البوذية أن الروح تظل تتناسخ فيها حتى تصل إلى النيرفانا أو الإشراق، تبعث الروح في عالم من تلك العوالم بناء على ما تفعله الروح في الحياة السابقة، إن فعلت خيراً ترتقي لأعلى وإن فعلت شراً تنحدر لأسفل. والعوالم الست بترتيبها من أعلى لأسفل هي عالم الآلهة، وعالم الإنسان، وعالم الأسورا، وعالم الحيوانات، وعالم الشياطين، وعالم الجحيم. وصفات الأسورا أنها مخلوقات تشبه الآلهة في قدراتها ولكنها تشبه الشياطين في أفعالها. وتظل في صراع وقتال دائمين طوال فترة حياتها.

(2) الساكرا: هي الآلهة الحامية في الديانة البوذية. أصلها من ديانات الهند القديمة الهندوسية والبراهماتية ولها وجود كذلك في الديانة الزرادشتية. في البوذية هي الآلهة التي ساعدت بوذا على الوصول إلى الاستنارة والإشراق.

كل من يعرف ماساكي، يرى أنّ ذلك يتناسب معه تمامًا. في الأصل، تفكير ماساكي تجاه ما يُسمى بالشرّ، عادي للغاية. من ثم، وبسبب ذلك، فهو لا يتقبّل فعل الشرّ وكأنّه الأمر الطبيعي. إذا كان الأمر كذلك، وإذا سألنا لماذا يمكننا مقارنة جمال ماساكي بجمال شخصيات مثل الشيطان والأسورا، لأنّه يوجد على الدوام حماس متأجّج في عقله الباطن.

في الأصل، كلمة «حماس» تلك استعارها ماساكي من أشعار «باي»⁽¹⁾ كترجمة لكلمة «Impassioned» الإنجليزية. في حياته العادية، كان ماساكي كثيرًا ما يكتب أشعارًا جيّدة، وقد نشرت عدّة مجلّات أدبية تلك الأشعار وكذلك نُشر له مقالات نقدية عن الشعر. أشكاله الشعرية الحديثة كانت مبتكرة وجديدة للغاية، وقد استُقبل ماساكي بحرارة شديدة كرائد للشعراء الرومانسيين الذين كانوا قد بدأوا يظهرن تدريجيًا وبكثرة في عالم الشعر. وبصفة خاصة عندما اكتشف كلمة «الحماس» أثناء كتابة مقالة تتحدث عن اللورد «بايرون»، فقد اجتاحت عالم الشعراء قشعريرة حينها، بعد ذلك، وكلّما تمّ الحديث عن ماساكي لا بُدَّ وأن يتم استخدام تلك الكلمة.

أما عن ماساكي نفسه، فقد كان يملك إحساسًا بذلك الحماس منذ وقت مبكر. فقد كان ذلك أشبه ما يكون بمرض مزمن خاصّ به وحده. يشعر أنه من أجل الحصول على إحساس أنه يحيا حقًا، فلا بد من خوض تجربة سمو روجي نابض بالحركة العنيفة، سمو نقي غير

(1) لي باي (701 || 762): شاعر صيني من عصر إمبراطورية تانغ. ترك ما يزيد عن الألف قصيدة ويعتبر من أشعر وأعظم شعراء الصين على مدى تاريخها.

مستمر يتخطى اللحظة، ويدمر الحياة المعيشية كلها بضربة واحدة لا رجعة فيها. ويرى أن تحقيق ذلك لا يتم بمجرد تراكم الأيام تدريجيًا بعضها فوق بعضها، وانتظار ما يمكن الحصول عليه في نهايتها. فإذا لم تملك الحرارة من الدم وتجعله يفور مثل الماء المغلي، سوف يتوقف جريانه، ويتغير لونه ويتجلط. وإذا لم يُستخدم الجسد بعنفٍ إلى حدِّ الألم، فسوف يسقط في قاعٍ مللٍ خانق.

الحماس هو عبارة عن كتلة من الزجاج ذابت من الحرارة وتألَّق بلون ذهبي. أمَّا إذا تم استخدامه في الحياة المعيشية، فإنها ستمنحه شكلًا نفعيًا عاديًا، ولكنه سيردُّ بسرعة شديدة كلما استطاعت الأيدي لمسّه. وسيكون بريقه المتبقي متواضعًا. بل وحتى ذلك البريق سيُفقد أخيرًا، ويصبح مُعتمًا تحت أوساخ الأيدي، ثم على الأرجح، ينكسر من دون الانتباه إليه وبلا أيِّ معنىٍ مطلقًا في لحظة تالية من لحظات الحياة.

لا يشعر ماساكي بالارتياح تجاه ذلك. ولكن رغم ذلك القول، فهو لا يدري ما هي الطريقة التي يجب عليه فعلها لإكمال حماسه في هيئة ما. هو مستعد نفسيًا، ولكنّه كان دائمًا معرفيًا أكثر من اللازم، ليركَّ كلَّ شيءٍ هباءً مؤثرًا العواطف فقط.

في لحظة ارتباط الحماس مع الفعل حقًا، كان ماساكي دائمًا يسحب تلك اليد التي كان قد مدها، ويتقهقر خطوة، وينظر إلى ذلك المكان الذي كان على وشك أن يلمسه للتو. ثم يغرق في التفكير. يفكر بعمق، هل يوجد حقًا قيمة أو فائدة من لمسّه؟ أو يفكر في ما سيحدث بعد أن يلمسه. ثم يفكر في ما سيحدث لو لم يقدر أن يلمسه في نهاية

الأمر. وخلال تلك المدّة، بيرد تدريجيًا حماسه. بيرد من دون أن يكون شكلاً. فمن الأفضل لو أنه اختفى وفقد تمامًا. ولكن بعد ذلك، وبشكل مؤكد، تبقى بلا طائل كتلة ثقيلة من القبح الشديد. وذلك أمر لا يمكن الصبر عليه. لا يمكن احتمال ذلك العبء الخامل المتناقل.

عندما كان فتياً سريع الحماس، اشترك ماساكي في حركة الحقوق المدنية، وتعرّف على عدد من أعضاء الحزب الليبرالي القديم، وقام بالعمل معهم في أنشطتهم السياسية. وكان ذلك لأنه، باندفاع أهوج، أشعل بنفسه الحماس المتبقي داخل جسده، راغبًا في تشكيله على نحو ما، فترك له العنان بالاشتراك في الحركة السياسية التي كانت، بالصدفة، قريبة منه. كان هذا فقط هو كل ما في الأمر. ثم في النهاية، لم يكن أمامه في ذلك الوقت إلا أن يتأمل غاضبًا حماسه ذلك وهو بيرد مرّةً أخرى من دون أن يستطيع فعل أيّ شيءٍ تجاهه. ويحتقر من أعماق قلبه غباء أعضاء الحزب الليبرالي، ويضحك من انهيار حركة التحالف المشترك بسبب اختيار شوجيرو غوتو⁽¹⁾ وزيرًا في مجلس الوزراء، كأنه يسخر من ذاته هو.

حياة ماساكي، إذا فصلنا القول، كانت عبارة عن تكرارٍ مملٍّ ومتواصل لتلك العملية. بعد ذلك، كان قد قرّر مرّةً أن يصبح سياسيًا

(1) شوجيرو غوتو (1838 | 1897): سياسي ياباني كان من محاربي الساموراي الشباب في نهاية عصر إيدو، الذين شاركوا وحاربوا من أجل إنهاء الحكم العسكري للساموراي وتسليم مقاليد الحكم للإمبراطور والحكومة مدنية. وفي عصر مييجي شارك في تأسيس عدة أحزاب سياسية ليبرالية على النمط الغربي الحديث. عُين وزيرًا للمواصلات والبريد في ثلاثة حكومات ووزيرًا للزراعة والتجارة في حكومتين في الفترة من عام 1889 إلى عام 1894.

كبيراً يتولى عملية إعادة إحياء مصير الشرق المتهالك. ثم قرّر مرّة أن يصبح في وقت ما روائياً يتحكم في القضايا الفكرية والسياسية بقوة قلمه وكتاباته مثل فيكتور هوغو⁽¹⁾. وكذلك، رغب في أن يصبح مفكراً. وأيضاً، رغب في أن يكون من كبار التجار. ثم في النهاية فشل في أن يصبح أيّاً من ذلك، وأخيراً يحاول الآن أن يتقبّله المجتمع كشاعر.

أفرغ ماساكي في تأليف الشعر كلّ ما يملك من حماس. وكانت سرعته في الكتابة تدهش أقرانه على الدوام. كان عمله ينطبق عليه القول: إنَّ القلم يخضع لإرادته. وكان ذلك في منتهى الوضوح، إلى درجة أنَّ هناك من انتقد منهجه في التأليف، ذلك الذي يجعله يهتم أكثر بفعل كتابة الشعر ذاته أكثر من عملية صقل محتوى القصائد. وربما كان ذلك نقداً أصاب كبد الحقيقة. ورغم ذلك، فسبب أنَّ الناس لم ترتب في موهبته الشعرية هو أنَّ تلك السرعة في التأليف لم تجعل جودة أعماله تنخفض بالضرورة. إنَّ أشعار ماساكي التي تعبّر عن مشاعره، لا يوجد بها على الإطلاق أية أجواء عاطفية كثيفة أو عبارات مطوّلة عديمة الفائدة تدلُّ على الحقد، مثل تلك التي تُرى في أعمال بعض الشعراء الرومانسيين قليلي الثقافة، ولكنَّ تعبيرات ماساكي ذات قوّة ومثانة، وبساطة تلقائية، وتمتلى بالحنين إلى الماضي السحيق، وفي

(1) فيكتور هوغو (1802 || 1885): أديب ومفكر ورجل سياسة فرنسي شهير، نشر في حياته أكثر من خمسين رواية ومسرحية وترجمت أعماله إلى أغلب لغات العالم الحية ومن أشهر أعماله البؤساء وأحدب نوتردام. قضى فترة طويلة من حياته منفياً خارج فرنسا أثناء حكم نابليون الثالث. أصبح فيما بعد عضواً في مجلس الشيوخ ثم عضواً بالجمعية الوطنية. كان من مؤيدي الحرية في السياسة والرومانسية في الأدب.

ذات الوقت تنساب بين السطور مهتزة كماءٍ صافٍ، عاطفة رقيقة لا يمكن التعبير عنها بالكلمات.

ولكن إذا كان الأمر كذلك، فهل هو على اقتناع تام بأنه شاعر؟ لا، هو ليس بالضرورة كذلك. بل على العكس يحسُّ بعدم الرضا. ما سبب ذلك يا ترى؟

بالطبع، يوجد أحياناً ما لا يعجبه، ولكنّه راضٍ تماماً عن كلِّ الأشعار التي كتبها. وتقييم جماعة الشعراء له ليس سيئاً. هو يشعر أنه يُحسِّن التخلُّص من حماسه من خلال التأليف. ورغم ذلك يحدث في أحيانٍ كثيرة أن يقع فريسة مرض اللوهن العصبي العنيف حتى في أكثر أوقات تألق إلهامه الشعري، وأكثر أوقاته غزارة في الإنتاج. ولم يكن ماساكي يستطيع فهم ذلك.

تعاسة ماساكي كانت بسبب عدم امتلاكه أيِّ تفسيرٍ للتناقض الجذري الموجود بين حياته وتأليفه للأشعار. يوجد لديه أمل غير واضح المعالم في أنه إذا أفرغ حماسه في حركة الحقوق المدنية، أو أفرغه في تأليف الشعر، سيحصل على نفس النتيجة بنفس الشكل. تأليف الشعر يومياً، هو تجمّع لسموٍّ واحد فقط لا استمرارية فيه، ويعتقد أن كلاً منها عبارة عن تجربة جديدة مستقلة بذاتها. في الحقيقة، ماساكي لديه إحساسٌ بذلك. ولكن الغرق في التفكير داخل النفس، الذي يصاحب تأليف الشعر، يأخذه من دون أن يدري بعيداً عن الحياة اليومية. وعندما ينتبه، يشعر وكأنَّ العالم قد ابتعد عنه مفارقاً إياه بعيداً. وهو لا يستطيع فهم مراحل ذلك. لا يستطيع الفهم، ولكنّه يعرف ذلك بالإحساس، ولهذا فهو يسافر. فمن خلال السفر، يتأكد من آلام ومعاناة الجسد.

عندما يصبح الوهن العصبي عنيفاً في النهاية، يتشنج نصف وجه ماساكي الأيسر قليلاً. ثم بعد ذلك تظهر تدريجياً عادة اختلاج عنقه التي تكون هادئة في الأوقات العادية. وربما كان ذلك السبب في أنّ الكثير من الناس يرون في جمال وجهه جانباً غريباً نوعاً ما.

حسناً، عندما حمل إينيو الطعام، ثنى ماساكي جسده محاولاً النهوض معتمداً على قوته الذاتية. ثم أسند مرفقه على الأرضية، وعندما رفع جسده قليلاً جداً، سقطت رأسه فوق الوسادة مرّةً أخرى وكأنّ خيطاً يتدلى من أعلى قد انقطع فجأة. وضع الراهب كفّه على جبهته ليتأكد من حالة الحمى.

«على ما يبدو لا زالت محمومًا، من الأفضل لك أن تتناول ولو القليل من الطعام.»

جلس ماساكي أمام أواني الطعام بمساعدة اليد التي مدها إينيو إليه، وعندها هجم عليه دوار خفيف.

«تفضل قبل أن يبرد.»

في الأواني حساء أرز أبيض وقطع من الفجل المخلّل. أمسك ماساكي بعصيان الأكل، وعندما كان على وشك لمس الطعام، أعاد التفكير وأعاد الصحن إلى مكانه مرّةً أخرى. وبعد أن تردّد لحظة أحنى رأسه عميقاً مرّةً أخرى وقال:

«أنا في غاية الامتنان لك، فعلاوة على إنقاذك لي، ها أنت تقدم لي

الطعام بهذا الشكل....»

لم يردّ الراهب على كلامه بل اكتفى بقوله «تفضل». وقتها ولأوّل مرّة واجه ماساكي وجه الراهب العجوز. الوجه ذو اللحم الضئيل يعطي

إحساسًا بطبيعة الزهد لديه، علاوة على ذلك، التجاعيد العديدة التي برزت في ضوء الشموع، تعطي لذلك الزهد عمقًا أكثر. وربما بسبب حرصه على أن يتناول طعامًا متواضعًا، بدت عليه ملامح الشيخوخة الشديدة. إلى درجةٍ يمكن القول إنها غير طبيعية. لا لحية له، ويرتدي زياً هو عبارة عن قطعة واحدة من الكتّان المتواضع.

أخفض ماساكي بصره، وحاول الإمساك بعصيان الأكل. ثم تردّد مرّة ثانية. الراهب الذي كان يشاهد ذلك، ضحك بحنان وقال:

«لا مانع. افعل ما يحلو لك.»

ضحك ماساكي أيضًا لذلك، ثم قام بحركة ضم كفيه إلى بعضهما التي لا يعتادها. ومضغ قطعة من الفجل المخلل محدثًا أثناء أكله صوتًا.

«هل تحسُّ بألم؟»

«أجل... بشكلٍ مفاجئ...»

ماساكي الذي انتهى من تناول الطعام، ويشرب الآن الشاي الأخضر، تغيّر لون وجهه فجأة فوضع الكوب جانبًا.

«هذا أمر متوقّع. على ما رأيتُ، يبدو أنّ الجرح عميقٌ جدًّا، وإذا لم تأخذ قسطًا من الراحة والعلاج لفترة هنا، فلن يكون سهلاً عليك مجرد السير على قدميك.»

«لفترة؟... كم سيستغرق ذلك؟»

«حسنًا، لا يمكنني تحديد ذلك، ولكن على أسوأ الأحوال ربما يستغرق الأمر شهرًا...»

«شهرًا كاملاً؟»

«هل أنت في عجلة من أمرك؟»

لا، مطلقاً. في الأصل، هذه رحلة بلا هدف ولا وجهة... فقط،
أخشى إن مكثت طويلاً، أن أسبّب لك إزعاجاً. ۞
... لا مانع لديّ من ذلك. ۞

هكذا أجاب الراهب العجوز. ولكنّ ماساكي بشكل ما أحسّ
تجاه تلك الإجابة التي جاءت بعد فترة صمت، أنّه قرأ ما بداخل قلب
الراهب، فأضاف قائلاً:

أنا أيضاً لا يوجد سبب يجعلني أطيل البقاء هنا، وحالما تتحسن
صحتي، سأرحل من الجبل وأعمل على مواصلة رحلتي. لأنّه يجب
عليّ ألاّ أكون عائقاً لك في ترهبنك وانقطاعك للعبادة. ۞

صمت الراهب وأوماً برأسه قليلاً علامة على موافقته على كلامه....
عاد الراهب مرّةً أخرى إلى الغرفة بعد أن رفع أواني الطعام. ثم
عرّف نفسه لماساكي الراقد فوق الفراش قائلاً:

الم أعرف اسمك بعد. اسمي، بعد الترهبن، إينيو. ۞
تلك الكلمات غيّرت وجه ماساكي ذو اللون الأبيض المزرق قليلاً،
إلى لون أحمر خافت ثم قال في عجلة:

القد نسيت... كان يجب عليّ أنا القيام بتعريف نفسي. اسمي
ماساكي إيهارا. ۞

السيد ماساكي. ۞

النعم. الاسم القديم لزهرة الياسمين. كانت تُسمى إياسمين
ماساكي، والدي كان يحب مسرح النوا للتقليدي، وقد أخذ ذلك
الاسم من مسرحية زهرة الياسمين لكونبارو زينتشيكو⁽¹⁾. ولكنه قال

(1) زينتشيكو كونبارو (1405 ۞ 1471): كاتب ومؤلف مسرحيات لمسرح النو
التقليدي الياباني له عدة كتب ومؤلفات في التنظير للفنون التقليدية اليابانية

إنَّ إضافة كلمة الياسمين سيكون مريعًا.

﴿فهمتُ.﴾

﴿أنا طالبٌ في جامعة طوكيو، وبجانب ذلك، أكتبُ الشعر. كلُّ من يعرفني يظنُّ أنَّ ماساكي﴾ ذلك هو اسم شهرة اتخذته من أجل الكتابة، لا بُدَّ أنَّهم يعتقدون أنني متكبِّر للغاية. ولكنه، بالطبع، اسمي الحقيقي.﴾
﴿هل تكتب الشعر؟﴾

﴿أجل.﴾

وعندها، صمت ماساكي الذي رفع نظره، بعد أن لاحظ اختلاج مُقلّة الراهب بين جفونه نصف المفتوحة أسفل الحواجب البيضاء مثل الثلج. وبعد ذلك تعمَّد تغيير مجرى الحديث.

﴿على أيِّ حال، أنا لم أكن أعتقد أبدًا أن أجد معبدًا بوذيًّا في هذا العمق من الجبل. خاصة في هذه المنطقة...﴾

﴿نعم، ففي هذه المنطقة لا يوجد إلا معبد واحد فقط هو هذا المعبد. في الأصل، كان هذا كوخ قديم لحرق الفحم. وهو ليس بالحجم الذي يمكن اعتباره معبدًا. وأيضًا هو بلا اسم.﴾
هكذا أجاب الراهب بهدوء.

في الأصل، الراهب العجوز المسمى إينيو كان مُعلِّم عبادة التجوّل لمعبد إغيوكورين من فرقة كوشوجي في طائفة أسوتو لديانة الزن البوذية، والواقع في جبل إغوسان الجنوبي بمنطقة أونو أو أزا ببلدة أتوتسوكاوا. منذ حوالي 25 عامًا مضت، كان اسمه شوزان واسم

بالإضافة إلى أعماله الفنية ومنها مسرحية زهرة الياسمين التي تستند على أسطورية شعبية يابانية تحكي عن أمير ياباني تموت حبيبته، ومن شدة حبه لها يموت وتبعث روحه من جديد بعد تناسخها في شكل زهرة ياسمين تلتف حول قبر حبيبته.

العائلة التي ينتمي [تشيبيا]]. يوجد سبب جعل الراهب المُعَلَّم لذلك المعبد المعتبر يعيش في كوخ بعمق الجبل لا يمر عليه أحد. ساعد في ذلك تقلبات الزمن وتحولات القَدَر.

كان زمن وجود [إينيو] في معبد [غيوكورين] في الفترة من نهاية عصر [إيدو] إلى بداية عصر [ميجي]، أي العصر الذي واجهت فيه البوذية في بلادنا أزمة غير مسبوقة. وغني عن القول إن سبب ذلك هو حركة إلغاء البوذية وتحطيم تماثيل بوذا التي بدأت شرارتها بقانون [فصل الديانة البوذية عن ديانة الشينتو] الذي صدر في العام الرابع من عصر [كي يو]⁽¹⁾. ولا يوجد وقت لسرد كل الأحداث التي تُظهر عنف تلك الحركة. ولكن على سبيل المثال، فقد عُرضت أبراج معبد [كوفوكوجي]⁽²⁾ الخمسة، مع الأبراج الثلاثة، للبيع، وبيعت بخمسة وعشرين يَنًا، ووضعت لفائف كتاب [تنبوشا] المقدَّس المنسوخة على أرفف محلات الكتب القديمة للبيع بمبلغ خمسة يَنات للنسخة، وسُرقت التماثيل الألفية لبوذا⁽³⁾ واستُخدمت كحطب في الحمامات العامة،

(1) العام الرابع والأخير من عصر [كي يو] هو نفسه العام الأول من عصر ميجي أي عام 1868م. فعادة ما يُسمى العام المشترك لعصرين باسم العصرين، العام الأخير للعصر المنتهي والعام الأول في العصر الجديد.

(2) معبد كوفوكوجي: معبد بوذي في مدينة نارا وضعت أساسه أوكيمي كاغامي عام 669م تقريبا لبوذا من أجل التعجيل بشفاء زوجها كاماتاري فوجيوارا (614 || 669) وأكملته ابنه فوهيتو فوجيوارا (659 || 720) الذي كان أول من دُفن في مقبرة المعبد. تم نقل المعبد أكثر من مرة ليستقر في موقعه الحالي في مدينة نارا منذ عام 710م. وكان للمعبد مكانة سياسية كبيرة في تاريخ اليابان ودُمر أكثر من مرة بسبب الصراعات السياسية ثم أعيد بناؤه مع اختلافات كثيرة عن شكله القديم.

(3) التماثيل الألفية لبوذا: هي تماثيل صغيرة لبوذا من الخشب يتراوح طولها في الأغلب بين الأربعين والخمسين سنتيمتر ولكن يوجد نوع منها يبلغ طولها متر كامل، يُعتقد أنها صُنعت في عصر هييآن (794 || 1185). لا يعرف عددها على

وهذا مجرد جزء بسيط مما حدث. ولم يكن من النادر وقوع أحداث عنفٍ مثل حرق المعابد والأديرة البوذية وتحطيم تماثيل بوذا المقدسة. ولكننا لو نظرنا إلى البلاد ككل فلن نجد بلدة استطاعت أن تقضي على الديانة البوذية قضاء تامًا حتى النخاع مثلما حدث هنا في بلدة توتسوكاوا¹. ولكن لا يجب اعتبار ذلك أمرًا عجيبيًا على الإطلاق. إذا فكرنا في تاريخ تلك المنطقة، لرأيناها على العكس، فوجود عدد كبير من المعابد البوذية التي تنتمي للطوائف البوذية المختلفة بداية من طائفتي سوتو ورينزاي² وصولاً إلى طائفتي التنداي³ و الشينغون⁴ وغيرهم في الماضي، لهو الأمر الذي يشير الدهشة أكثر بكثير.

بدأت حركة القضاء على البوذية في قرية توتسوكاوا⁵ في العام الأول من عصر مييجي⁶ (1) بعد الموافقة على طلب من أهل القرية بإعادة إعمار جبل تاماكي⁷. كان أهالي القرية قد أبعثوا بالفعل عن جبل تاماكي الذي كان خاضعًا وقتها لسيطرة معبد شوغوئين⁸، من خلال استبدال دير تاكاموروين⁹ التابع للمعبد. أهل القرية الذين قُبل طلبهم قاموا على الفور بعملية إلغاء البوذية وتحطيم تماثيل بوذا، وأزالوا تمامًا كل شكل من أشكال البوذية هنا، علاوة على ذلك، في العام السادس من عصر مييجي (2) تمّ القضاء تمامًا على كل المعابد البوذية في القرية والتي كان عددها يبلغ 51 معبدًا. معبد تاماكي¹⁰ البوذي القريب من نهر أونوكاوا¹¹ كان واحدًا منها.

وجه الدقة ولكن أشهرها ما يُعرف باسم تماثيل معبد كوفوكوجي الألفية لبوذا الوارد ذكرها هنا.

(1) العام الأول من عصر مييجي هو نفسه العام الرابع والأخير من عصر كي يواي عام 1868م.

(2) عام 1873م

عندما بلغ الحال ذلك المبلغ، كان عددٌ كبيرٌ من الرهبان قد عادوا لحياتهم المدنية العادية. وكذلك كانت هناك عروض لاستضافتهم من خارج المنطقة. ولكن إينيو الذي كان قد تسلّم رخصة الرهينة لتوه، وكأمر طبيعي، رفض كل تلك العروض. ثم ترك المعبد وغادر من دون أن يبلغ عن مقصده، وذهب وحيداً في رحلة حجّ مستغنياً عن الدنيا. تُعرف تفاصيل الأحداث التي حدثت حتى تلك اللحظة. ولكن

لا يُعرف ماذا حدث لإينيو بعد ذلك، ولم يمكن التعرف على مصيره. أحد أسباب ذلك أنّه استمر في رحلة الحج بملابس لا تختلف في كثير أو قليل عن ملابس الشحاّذين العاديين. سبب آخر، أنّ حكايات العامّة الساخرة من رهبان ذلك العصر، لم تتضمّن اقتفاء أثره. ولكن بعد مرور سنتين من ذلك التاريخ، عاد إينيو مرّةً أخرى وحيداً إلى قرية [توتسوكاو]. ثم وفي نُزُلٍ للعيون الساخنة تصادف أن أقام فيه، حدث له ما جعله يصل فجأةً إلى الحقيقة الكبرى والاستنارة العظيمة، فعرف أنّ حدود ما كان يظنّ، حتى ذلك الوقت، أنّه إشراق واستنارة لا يزيد عن كونه في النهاية حدود الأرهات⁽¹⁾. كان ذلك منذ 22 عامًا، أي عندما كان في سن الثامنة والثلاثين. فقام إينيو على الفور بحرق رخصة الرهينة مع حطب فرن الطبخ. ثمّ، وبفضل ذلك، أنهى رحلة الحج، وبنى كوخه هذا للتعبّد في أعماق جبل [أوسن داكه].

في هذه الحكاية نقطة غامضة قليلاً؛ فعندما قرّر إينيو السكن في أطلال كوخ حرق الفحم في وسط الجبل، قام عدد من الأهالي ببناء

(1) الأرهات: هي درجة من الدرجات التي يصل إليها الراهب البوذي أثناء تدريبه الروحي في طريق وصوله إلى الحقيقة الكبرى أو الاستنارة والإشراق. أصل الكلمة في اللغة السنسكريتية تعني عظيم أو ذو قيمة هائلة.

قاعة صلاة للزن بجوار الكوخ، وإن كانت متواضعة. وكونهم جميعًا كانوا من الذين اشتركوا في حركة القضاء على البوذية وتحطيم معابدها وتمثيلها، فهذا فعلٌ في غاية العجب. وكذلك، إينيو لم يرفض مساعدتهم تلك. المكان الذي ينام فيه ماساكي حاليًا هو ذلك الكوخ، الذي بُني على أطلال كوخ حرق الفحم. والمكان التي يأتي منه إينيو ويذهب إليه هو قاعة صلاة الزن التي بُنيت وقتها.

بالطبع، لم يكن ماساكي يعرف أيَّ شيءٍ عن تلك التفاصيل. ولكن فقط كان لديه حدس بطبيعة منطقة قرية أتوتسوكاوا¹ لمعرفته بعلاقتها بالأمير موريبوشي⁽¹⁾ والقائد ماساكاتسو كوسونوكي⁽²⁾.

-
- (1) الأمير موريبوشي (1308 || 1335): ابن الإمبراطور أغودايغو الذي جلس على العرش من عام 1319 إلى عام 1339. شارك في حروب والده ضد محاربي الساموراي من حكومة كاماكورا العسكرية بهدف إنهاء سيطرة الحكومة العسكرية على البلاد. وحقق جيش الإمبراطور انتصارات متتالية في معارك توتسوكاوا ويوشينو وجبل كويا، ونجح في القضاء على حكومة كاماكورا العسكرية في عام 1333م، بعد تمرد قائد جيوش الحاكم العسكري أتاكا أوجي أشيكاغا وانضمامه للإمبراطور، ولكن تعيين الإمبراطور لابنه الأمير موريبوشي حاكمًا عسكريًا بعد سقوط حكومة كاماكورا، جعل أشيكاغا يحقد عليه ويدبر له تهمة محاولة الانقلاب على عرش والده وأرسله ليسجن في كاماكورا تحت رعاية أخو أشيكاغا الذي يقتله مخافة انضمامه إلى بقايا جيش حكومة كاماكورا. وبعد موت موريبوشي أسس تاكا أوجي أشيكاغا في عام 1336م حكومة عسكرية وبدأ عصر جديد باسم موروماتشي، ليبدأ عصر انقسام اليابان إلى إمبراطوريتين متصارعتين شمالية وجنوبية لكل منهما إمبراطور وحاكم عسكري، ثم تتسع رقعة الحرب الأهلية بين عدة أقاليم وتستمر لأكثر من قرنين، إلى أن يستطيع القائد العسكري توكوغاوا توحيد اليابان تحت حكمه ويبدأ عصر إيدو في عام 1603م.
- (2) ماساكاتسو كوسونوكي: غير معروف بالتحديد تاريخ ميلاده وتاريخ وفاته ولكن المؤكد أنه أحد رجال عائلة كوسونوكي الذين كانوا من المحاربين الساموراي المدافعين عن الإمبراطور في عصر الحرب الأهلية بين الحكومة العسكرية من الساموراي والجيش الإمبراطوري في نهاية القرن الرابع عشر

حقيقة، أغلب أهالي القرية يدينون بديانة الشنتو.

بعد مرور بعض الوقت قال الراهب إينيو:

النكمل حديثنا في يوم آخر. فأنت يا سيّد ماساكي لازلّت في طور

النقاها، وأعتقد أنّه يجب عليك الاعتناء بصحتك.

أوما ماساكي برأسه إيماءة صغيرة وكأنّه يخجل من ثرثرة لسانه.

وعندما وجّه ماساكي نظره تلقائياً إلى ما خلف الراهب، كان الظلُّ

الذي صنّعته أشعة ضوء المصباح يتأرجح مهتزاً في غموض على

واجهة الحائط.

أحسنا سأنصرف الآن، أرجو أن تأخذ قسطاً جيداً من الراحة.

هبط إينيو درجة إلى الأرض وفتح الباب بهدوء.

ازداد لهب الشمع الذي التوى مع هبوب نسيماتٍ من فتحة الباب،

اشتعل للحظة، ثم انطفأ فجأةً وكأنّ شخص ما قد أحاطه بقبضة يده.

احتضن الظلام ماساكي. وتسربّت منه بلا وعي تنهيدة أسي عندما

لمس بأصابعه النخيفة المرتعشة قليلاً، حواف ذقنه التي زاد من حدتها

تناقص شحمها.

مرّاً بأصبع البنصر فوق شفّتيه الجافتين، مثل امرأة تضع أحمر الشفاه.

ثم لمس طرف اللسان قليلاً.

وبداية القرن الخامس عشر. وعندما انقسمت اليابان إلى إمبراطوريتين كان

ماساكاتسو من المدافعين عن الإمبراطورية الجنوبية. وظل حتى مماته يحارب

عائلة أشيكاغا التي أسست دولة حكومة موروماتشي العسكرية. يوجد العديد

من الأساطير الشعبية التي تحكي سيرة ماساكاتسو خصيصاً بين كل محاربي عائلة

كوسونوكي. وتوجد مقبرة تُنسب له في قرية توتسوكاوا محل أحداث الرواية.

بعد مرور حوالي ثلاثة أيام، أصبح ماساكي بشكل أو بآخر قادراً على الوقوف بمفرده من دون الاستعانة بمساعدة إينيو.

كان تعافيه من المرض سريعاً. القدم حتى الآن بها بعض الخدر القليل، ولكن فتحة الجرح لم تتقيح، ويستطيع السير متكئاً على عكازة. بجوار الكوخ الذي ينام فيه ماساكي، يوجد المرحاض وقاعة صلاة الزن، متراصين باتجاه الغرب وكأنهما صندوقين مكعبين، الجبل منحوت بانحدار شديد، وأمام المباني توجد حديقة بمساحة حوالي عشرة أمتار مربعة. لا يرى اتجاه البساطة والرقي المعروف في معابد الزن. بل إن أزهاراً مثل ورود رودوندرن وزهور السحلبية تزهر متناثرة بأشكالٍ وألوانٍ عديدة، مما يجعل المكان، مزعجاً بصرياً، على عكس المعتاد.

توجد حقول مزروعة بنباتات الفجل والشاي، محاطة بالأزهار والورود. وبجانبا أحواض أرزٍ مقسمة لقطع صغيرة. لا يبدو على الأزهار ولا النباتات أن يد العناية تمتد إليها، ولكنها جميعاً كانت ذات حيوية، وتنتب مغطية الأرض من دون فراغات، بل وكانت سرعة نموها تزداد يوماً بعد يوم.

كان ماساكي لا يستطيع قراءة الكتب، حتى لو بلغ به الملل مداه، لضبابية بسيطة في الرؤية أصابت عينيه، ربما بسبب بقاء جزء من السم داخل جسده. ولذا كانت متعته الوحيدة في الأيام الماضية هي أن يخرج في وقت الغروب إلى تلك الحديقة، ويستنشق هواء المساء المنعش. اليوم أيضاً خرج من غرفته مبكراً قليلاً عن المعتاد. وذلك لأنه كان مهموماً بحديث دار بينه وبين إينيو في الليلة السابقة.

في اليوم السابق، استخدم ماساكي الماء الذي أحضره إينيو وبلل به منشفة ثم أزال بها الأوساخ التي تراكمت على جسده بعدما انقطع مدّة عن فعل ذلك. كما سمع منه، يذهب إينيو لجلب الماء الذي يستخدمه في إعداد الطعام وكذلك الماء الذي يستخدمه في الاغتسال، من ينبوع ماء قريب من المكان. حتى ذلك الحين، كان ماساكي يعتقد أنّ منبع الماء هذا عبارة عن شلال. وذلك لأنّه يسمع في الليل صوتًا واضحًا لماءٍ يجري، رغم أنّ الصوت لا يُلفت الانتباه نهارًا.

الصوت كان قريبًا لكونه نهرًا كبيرًا أكثر من كونه شلالًا. وكانت تُسمع كذلك أصوات طائر الرفراف الخافتة مختلطة مع صوت جريان الماء. ولكنه قال في نفسه يستحيل وجود نهر كبير هنا في هذه البقعة من أعالي الجبل. ولذلك اعتقد أنّه شلال.

توجّه ماساكي نحو إينيو الذي كان يعيد إناء الماء إلى مكانه، وطلب أن يصحبه معه إلى هناك عندما يتحسّن قليلًا.

«أعتقد أنّي سأشعر بالانتعاش والحيوية إذا اغتسلت هناك بعد فترة انقطاع عن الاستحمام.»

على أيّ حال، أجاب إينيو على ذلك بإيماءة من رأسه. ولكنه قال إنّهُ من المستحيل فعل ذلك إلّا بعد مرور فترة طويلة لأنّ الطريق وعرة. ولكن ماساكي واصل كلامه مضيّفًا وهو لم ييأس بعد بشكل كامل:

«ولكن المكان ليس بهذا البعد، أليس كذلك؟ هل هو شلال ضخم؟»

إزاء ذلك بدت ملامح الدهشة والعجب على وجه إينيو وأجاب:

«إنّه ليس شلالًا. بل هو ينبوعٌ صغير، قطره حوالي عودين من

الخيزران»

اندهش ماساكي لذلك بشدّة، وكان على وشك أن يسأل إينيو عن

ذلك الصوت الذي يصل إلى أذنه الآن. ولكن عندها اختفى الصوت وأصبح لا يسمعه.

لذلك، كان ماساكي يخرج إلى الحديقة في النهار في أوقات متفرقة. وعندما يجلس ويصيح السمع وكأنه يحاول مدّ أذنيه إلى أعماق الغابة. كان الجبل هادئاً في ذلك اليوم أيضاً، وكانت الرياح تحمل إليه الأصوات كلّها دون أن تغفل صوتاً واحداً، تحمل صوت الطيور وحتى صوت حفيف أوراق الشجر وأفرعها الصغيرة. ولكن لم يصل إلى سمعه صوت الماء. فكّر ماساكي أنّ ذلك كان خيالاً من خيالاته. ثم نسي فكرته سريعاً، بسبب روعة النسيم الذي يهب من بين الأشجار، وأصبح فقط يدور بنظره في المشهد المترامي أمامه.

يملك ماساكي إحساساً رباتياً سحرياً من نوع ما تجاه نساء الطبيعة. كان ذلك إحساساً رومانسياً حقيقياً لا يمتلكه بحق واحد من بين الرومانسيين في عالمه، إلا هو كطبيعة فيه.

يؤمن ماساكي أنّ أيّ كلمة مهما كانت، تصبح بلا أي تأثير في اللحظة التي تصل فيها الطبيعة إلى الجمال الأكثر عمقاً وتمنّعاً. ويؤمن بقوة أنّ الشعر لا يُولد أبداً في تلك اللحظة. وهذا، على سبيل المثال، ليس بسبب أنّ النشوة تبتلع الكلمات المنطقية صعبة الانصياع، وتسلب ملكة التفكير. بل يعتقد ماساكي أنه في أثناء الوصول إلى تلك اللحظة، يتوحد الشخص المدرك بشكل درامي مع الطبيعة المدركة، ويصبح من المحال الإدراك في حد ذاته. لأنّ النفس، التي عليها البيان، تتوحد بشكل لا يمكن فصله مطلقاً عن الشيء المطلوب تبيانه.

لدى ماساكي جرح غائر وكبير كشاعر. وهو أنه، كطبيعة فيه،

ينقصه الجهد المطلوب للخروج من هذه الحالة، ومن ثمّ تضمينها في كلمات. وهذا النقص ليس بسبب التكاثر. بل على العكس، فتلك التجربة الروحانية ذاتها هي طلب ماساكي ومبتغاه الحقيقي.

عندما تعرّف ماساكي على الفكر الليبرالي الغربي، تخلّص لأوّل مرّة من أخلاق النظام الأبوي للكونفوشوسية، وترك الأفكار الطوباوية البوذية، وشعر أنه اكتشف لأول مرّة طريق الحياة كفرد مستقل بذاته. ولقد كانت مفاجأة سارة له، فبعد أن فكّ غزل الخيط ذي اللونين، المجتمع والطبيعة، اللذين نسجا شخصيته، اكتشف وجود ذاته متبقية مثل حبة الخرز. ولقد رأى أنّ ذلك عبارة عن عالم يمتلك قيمة واحدة بشكل خالص. كان يفكر في الغد الذي يتكوّن فيه حماسه كجزء من ذاته.

ولكنّه أصبح يعاني تدريجيًا من آلام ذاته.

في الأصل، ماساكي لا يفهم ما هو ذلك الشيء. يوجد لديه وعي بوجود شيء ما. وهو بذاته الذي اكتشف ذلك الشيء. ثم كانت ذاته تلك هي التي لا تفهم حتى ماهية ذلك الشيء.

إذا كان الأمر كذلك، هل تكون ذاته قد اكتشفت ذاته؟ وعندها هل يعني هذا أنّه يحمل ذاتين مختلفتين على الدوام؟ هو لا يعرف إجابة عن ذلك السؤال. ولا يعرف إن كانتا ذاتان مختلفتان، أم أنّهما ذات واحدة؟ هل يوجد احتمال لأن يكونا مختلفتين؟ في الأساس، لا يوجد إلاّ إنسان واحد يُسمى ماساكي إيهارا، إذن يجب أن يصبح ذاتًا واحدة. هل رغم وجود ذاتين، إلاّ أنّهما الشيء نفسه؟ حسنًا، عقد العزم وجرب أن يفكر أنّهما ذات واحدة. ثم جرب أن يفكر أنّ تلك الذات الواحدة

هي ذاته الحقيقية. حسناً لقد فهم بذلك الأمر جيداً. ولكن بالمناسبة ما هي ذاته تلك؟ ...

قاد هذا التفكير ماساكي فجأة إلى صراع النظرية الثنائية على الطريقة الغربية. توجد ضرورة لقفزة لا نهائية من أجل أن يتحوّل شيء واحد إلى شيئين. ولكن كي يتحوّل شيئين إلى ثلاثة، وثلاثة أشياء إلى أربعة، لا يحتاج الأمر إلاّ مجرد دفعة بسيطة من القدم، تمامًا مثل المشي. تخطى ماساكي الحاجز الأول وهو تقريبًا لا يدري. ثم عندما انتبه وجد الكون من أقصاه إلى أقصاه قد تحوّل إلى قطع متناثرة، وكأنها قطع الدومينو المتساقطة بالتتابع.

وأصبح ماساكي يعاني من دون معرفة سبب المعاناة، مثل الذي أصيب أثناء سفره بوباء مُعدي لا يُعرف كنهه. وبهذا الشكل رمى ماساكي بذاته التي حصل عليها لمرّة، ولم يستطع أن يستشعر ذاته الحيّة مرّة ثانية كظاهرة داخل الطبيعة. قبل أيّ شيء كان السبب هو عدم سماح الحماس بذلك. ولهذا السبب، كان مع امتلاكه لما يسمى ذاته دائماً وفي كلّ مكان، أصبح يتمنى التوحد والتكامل التام مع الوجود مالاّ طاغ متعالٍ لا تستطيع الثنائية فصله. في النهاية، الذات، كذات، لها وجود واحد. هذا الوجود يحتفظ بكامل حجمه كما هو من دون أيّ ذرّة نقص، في الوقت نفسه، أصبح الآن وكأنّه يرغب في وجود واحد، وتوحد واحد، وكأنّ ذلك يحلّ كلّ التناقضات الموجودة بالفعل.

ثم يصبح هذا الوجود المطلق بالذات، بالنسبة لماساكي، هو جمال الطبيعة ذو السحر العميق.

بالطبع، لم ينشأ إحساس ماساكي هذا على أفكار تجريدية تخمينية.

إذا شئنا القول، فقد اكتشفت الأفكار التجريدية بوابة خروجها في ذلك الإحساس الطبيعي.

أسند ماساكي ظهره إلى جدار الكوخ، وأثناء تأمله الجبال البعيدة، ظلَّ يفكر منذ قليل في حياة الأعمى.

كل البشر يعيشون، في العادة، وهم يتوقعون ما سيحدث اعتماداً على حاسة البصر. مثلاً، عند السير في الطريق، لو استطعت رؤية الطريق على بعد مئة خطوة من موضعك، يمكن القول إن لديك بالفعل توقُّع عن العالم المقبل عليك. وقتها يستطيع الإنسان تخيُّل وجوده في ذلك المكان المتوقَّع. ويستطيع بعد عدة ثوانٍ، أو عدة دقائق التأكُّد من وجوده في العالم الذي تخيَّله. يستطيع من خلال الحدس عمل تبادل بين وجوده المستمر والعالم المستمر. ويتسبب ذلك التوقُّع في تأكل العلاقة بين العالم والإنسان على الدوام. أي أن التوقُّع يستعبد اللحظة. ولكنَّ عالم الأعمى لا يوجد إلا بين يديه. لا يُعطى أيُّ توقُّع للعالم. العالم يعلن عن وجوده لأول مرَّة في ذات اللحظة التي يلمسه الأعمى فيها. في تلك اللحظة فقط، ثم فجأة يختفي من الوجود. لا وجود للجبال البعيدة نهائياً. ما يجعل لها وجوداً، هو فقط الوصول إليها وبدء المشي عليها بالفعل. ثم وقتها يتواجد لأوَّل مرَّة الأعمى ذاته مرتبطاً بعلاقة جديدة مع الجبل الذي أصبح له وجود.

لا يمكن اختراق المستقبل على الإطلاق. من المفترض أن اختلاط العالم مع الإنسان في تلك اللحظة أمر محتوم.

إنَّه اختلاط بالغ الصفاء بين الإنسان والعالم المتجدد في كلِّ لحظة، تحت توترٍ ما حازم وصارم. يا لها من دهشة. يا لها من سعادة.

.... ماساكي الآن، وإحساسه هذا يشغل جسده بالكامل، وبقوّة
جبارة لا يمكن وصفها، قوّة محبّاة في مناظر الأرض تلك، كان يحسد
مثل تلك اللحظة. اللحظة المطلقة الواحدة التي ليس لها مستقبل
متوقع. اللحظة التي يتم الوصول إليها بواسطة الجسد فقط، بواسطة
الفعل فقط. يحسد تلك اللحظة وهو يشعر بتوقُّع سرّي وخاص، أنّ
تلك اللحظة في النهاية هي بحق، لا بل تلك هي اللّحظة الوحيدة، التي
ينال فيها التوحّد الكامل والحقيقي مع الطبيعة.

مساء اليوم السادس منذ أن رجع الوعي إلى ماساكي في الكوخ.
خرج ماساكي كما هي عادته إلى حديقة المعبد، وهو يعث
بحصوات صغيرة في راحة يده كان قد التقطها صدفة، وهو ينظر تجاه
الغابة. اليوم أيضًا لا حيلة لديه يتغلب بها على الملل، أخذ كتابًا في يده
ثم رماه على الفور بجانبه، وفمه لا يُخرج إلّا تنهدات فقط.
بعد مرور فترة من جلوسه، حادثه إينيو الذي خرج من قاعة صلاة
الزن.

«كيف حال قدمك الآن؟»

كان صوته هادئًا.

«بفضلك أيها الراهب المبعجل، أصبحت أفضل بكثير... رغم بقاء
بعض الألم، ولكن إذا كان بهذه الدرجة فأعتقد أنّه سيزول قريبًا جدًا.»
ردّ ماساكي بوضوح تام.

ابتسامة ماساكي لم تكن بسبب تعافي جروحه فقط. فمرور الأيام
ومع استطاعته القيام بنفسه بكل شؤون حياته اليومية حتى التافهة

منها، قلت، بالطبع، فرص تبادل الحديث مع إينيو تدريجيًا. وهذا ما كان ماساكي نفسه يرى أنه أمر لا حيلة فيه. ولأنَّ إينيو عندما يقابله في الحديقة أو يصادف أن يمر بجانبه عند الذهاب للمرحاض، كان دائمًا لا يعيره اهتماما، ما جعل ماساكي يشكُّ في أنَّه يتفاداه متعمدًا، وأحيانًا كان يفكر إن كانت كلماته مع الراهب قليلة الاحترام، وكان يعاني نفسيًا بسبب ذلك.

«لو كان الأمر كذلك، فهذا أمر جيد جدًا».

جلس إينيو بجوار ماساكي وهو يردُّ عليه بهذه الكلمات. كان شفق الغروب يحرق السماء جاعلاً لونها زاهياً. وتُسمع من وقت لآخر أصوات طائر الوقواق آتية من عمق الجبال التي اصطبغت باللون الأحمر، وأصبحت وكأنها قد استقبلت موسم الخريف حيث تتباين ألوان أشجارها.

قال ماساكي وهو ينظر إلى الأمام بثبات:

«في هذه الجبال يُسمع صياح الوقواق بكثرة، أليس كذلك؟ ... آه، لقد صاح الآن مرَّةً أخرى... بالإضافة إلى ذلك، رغم أنَّ الكروان وغيره من الطيور، تأتي جميعها إلى هنا في وقت الغروب للبحث عن الطعام، ولكنَّ الوقواق فقط هو الوحيد الذي يصيح من بعيد، وهو أمر غريب... عندما أسمع ذلك الصوت، أشعر أنني أتفهَّم بشكل ما لماذا أطلق القدماء عليه اسم سيد جبل الموت. لا أعرف بالضبط ما هو ذلك الشعور، ولكن فقط أتفهَّم ذلك بشكل ما.»

لم يردِّ إينيو، ولكنه ظلَّ ينظر إلى غروب الشمس صامتًا. وُضع صمٌّ ما بعشوائية بين الاثنين.

نظر ماساكي بغير افتعال إلى ملامح وجه الراهب. كان وجهه مثلما كان في تلك الليلة، وجه شخص في منتهى الهدوء لا يلوّثه الغبار، بل ومجرد وجود مقدار ضئيل من الرحمة يجعله يمتلاً بها، هو وجه فارق الحيرة ووصل إلى الاستنارة بشكل مؤكد. انعدمت بينهما الكلمات. الصمت وكأنه فراغ رُسم بالفحم على لوحة بيضاء، هو عدم، وفي الوقت نفسه لا توجد فيه فجوات. وكان ذلك وكأنه يعبر عما بداخل قلب ذلك الراهب كما هو.

حياة العيش الداخلية. هل تُرى يوجد بالفعل شيء كهذا؟ في كلِّ مرّة يجلس فيها وجهاً لوجه أمام إينيو، تجتاح تلك الشكوك ذهن ماساكي. في حياته العادية اعتاد ماساكي على عدم الثقة بسهولة في ما يظهر على السطح الخارجي للبشر. وكان سبب ذلك، أنّ أفكاره تجاه أمور مثل التفاخر أو التظاهر التي كانت تعتبر في العهود السالفة [عادات حميدة]، ارتبطت بعدم الثقة بالناس منذ عصر الانفتاح على العالم، وتحوّلت، بشكل عجيب، إلى شيء مظلم متجذّر داخل قلبه. من أجل التعامل مع البشر، كان عليه دائماً أن يوجّه وعيه لأعماقهم الداخلية، ومعرفة ما هو مخبئاً فيها. ثم، يجب أن يقوم بفكّ الخيوط المعقدة المرتبطة بالمشاعر خيطاً خيطاً بحرص وعناية كبيرة. ثم أخيراً يستطيع بعد كلِّ ذلك أن يثق بهم.

ولكنّ ماساكي لم يكن يشعر بصعوبة كبيرة تجاه ذلك. فعلى الرغم من أنّ الأمر معقّد ومتشابكٌ بدرجةٍ شديدة، وإنما في النهاية لا يوجد خيط لا يمكن فكّ عقده. لكن الآن وماساكي جالسٌ أمام إينيو، لا تسير تلك الجهود المعتادة التي يبذلها بشكل جيد. وعي ماساكي الذي يوجّهه إلى داخل الراهب، على الدوام لا يتعمّق كثيراً، وعندما ينتبه،

يجده منزوعًا ومطروودًا للخارج مرّةً أخرى.

بعد ذلك لا يبقى إلا الصمت الأصلي. إذا كان الأمر كذلك، وسألنا هل يستطيع الإيمان بذلك الصمت؟ يكون الجواب كلاً، إنّه لا يزال يحس بالقلق. ويرتاب، هل يمكن الوثوق فيه أم لا. ولهذا السبب يواجه ماساكي صمت الراهب وهو لا يملك أيّة حيلة أو وسيلة للتعامل معه، ويبدو وكأنّه يجتهد في بذل الجهد لفكّ خيط واحد لا يتعقّد، أو هو، في الأصل، خيط وهمي غير موجود مطلقاً.

بعد برهة، ولّى إينيو وجهه تجاه ماساكي ودفع بنفسه الصمت بعيداً وقال:

﴿يوجد أمر ينبغي أن أخبرك به يا سيد ماساكي.﴾

﴿ما هو يا ترى؟﴾

أجاب ماساكي وقد اعتدل في جلسته.

﴿صحتك الآن أصبحت أفضل كثيرًا، وستقوم من الآن فصاعدًا بالتحرك والتجوّل أكثر من ذي قبل، لا مانع لديّ أبدًا من أن تسير وتتحرك في أيّ مكان داخل هذا المعبد. ولكن أرجو منك ألاّ تقترب من الكوخ الذي يوجد في الجهة الأخرى المقابلة لقاعة صلاة الزن.﴾

﴿الكوخ المقابل لقاعة صلاة الزن؟ وهل يوجد مبنى في ذلك المكان؟﴾

إنعم. هل ستحافظ على هذا الوعد؟ إذا لم تحافظ عليه، سينبغي عليك الرحيل من هنا. أرجو أن أسمع ردّك على ذلك.﴾

﴿.... نعم، بالطبع.﴾

أجاب ماساكي بملامح وجه في غاية الارتياب.

﴿إذا كنت أيها الراهب المبجل تطلب ذلك، بالطبع سأحافظ على

ذلك الوعد... ۞

هل أنت متأكد من ذلك؟ ۞

بالتأكيد... ولكن لماذا؟ ... هل يمكنك أن تخبرني عن السبب؟ ۞

بدا إينيو للحظة بسيطة ملامحًا غارقة في التفكير. ثم تحدّث بعد ذلك ببطء.

.... المنطق يقول إنه إذا احتفظتُ بالأمر سرًا، سيزيد ذلك من رغبتك في التلصص. لن أخفي عليك شيئًا. في الواقع، إنَّ من يسكن في هذا المعبد ليس أنا وحدي فقط... توجد سيدة عجوز تسكن في ذلك الكوخ. ۞

سيدة عجوز؟ ۞

نعم. ۞

ماذا تفعل بمفردها في هذا المكان؟ ۞

إنها مريضة بالجذام. ۞

..... ۞

أرغم تقدمها في العمر، إلا أنَّها ما زالت امرأة، ولذا فهي تكره أن تعرض تلك الحالة المزرية من الدمامة التي تحولت إليها على الغرباء. لو لديك قلب رحيم، أرجوك ألاَّ تحاول التلصص عليها ولو على سبيل المزاح. ۞

تبدّل لون وجهه ماساكي.

.... هل كان الأمر كذلك؟ بالطبع، سأحافظ على الوعد. لأنني

لست عديم الرحمة بارد الدم إلى هذه الدرجة. ۞

إذا حافظت على ذلك الوعد فقط، فأنت حرٌّ في ما عدا ذلك.

واعتقد أنك يجب أن تحرّك جسمك قليلًا من أجل الإسراع من درجة

تعافيك.]]

بعد أن قال إينيو ذلك رفع عنقه من دون أن تنفك أسارير وجهه.
أخيراً غربت الشمس، وكانت أطراف الجبال توشك على الغرق في
بحر الظلام بهدوء. وظلالها تلك كانت أكثر ظلاماً من الليل نفسه. وما
زالت أصوات صياح الوقواق ترتفع بإلحاح من مكان ما عميق في قاع
ذلك الظلام.

]]فقط تخاف الموت مع سماع هذه الأصوات منفردة؟....]]

بعد وقت ليس بالطويل، غادر إينيو بصمت إلى قاعة صلاة الزن.
أثناء متابعته لظهر الراهب بعينه، استطاع ماساكي الإحساس للمرة
الأولى بالتأكد من مشاعر الاحترام التي يكتنُّها تجاه الراهب إينيو، بعد
أن كانت حتى ذلك الوقت مشاعر مبهمّة.

أصبح تفسير صمت الراهب إينيو الآن أكثر صعوبة. ولكن التفكير
فيه بعد ربطه بأمر المرأة العجوز، جعل ماساكي يشعر ببعض العزاء.
فإذا كان الراهب إينيو يقوم في هذا الجبل المنعزل بالحفاظ على تلك
العجوز وحيدة في انتظار الموت، ثم إذا كان يخاف أن تخرق أقدام
ماساكي التي على وشك الشفاء ذلك، لأصبح الأمر مفهوماً...

وجّه ماساكي نظره ببطء ناحية حافة قاعة صلاة الزن.

هو لا يستطيع الآن رؤية كوخ العجوز. ولكن الكوخ يبدو وكأنّه
مخنوقاً في قبضة قوّة ما مشؤومة لا يُعرف كنهها، تجعل الظلام حوله
فقط أكثر ظلمة من غيره.

وكانّ حيوية روح الجبل الحيّة استهدفت ذلك الكوخ وتسربت منه،
مثلما تبتلع النجمة الميّتة أشعتها.

﴿فقط تخاف الموت، منفردة، ...﴾

أزالت دفعة من نسيمات الرياح الخفيفة آثار أقدام ماساكي الذي نهض متكئاً على عكازته.

الظلُّ يسقط باهتاً على الأرض. قاداته نظراته إلى سماء الشرق خلفه، يتلأأ القمر النصفى غير المكتمل، وكأنَّ قبضة من تجمُّع الثلوج قد ذابت، واندمجت في ضباب السحاب.

بعد مرور ثلاثة أيام على ذلك الحديث.

وضع ماساكي الذي كان يقف في الحديقة في الصباح الباكر، راحة يده على جبهته الشاحبة اللون، وأمال رقبتة في شيء من الاكتئاب.

﴿... مرّة أخرى؟﴾

نفوح في المكان حالةٌ وكأنَّ أمواج البحر الصغيرة التي تأتي في غير موسمها قد اشتبكت مع أشجار الحديقة، مثل الطحالب. ماساكي وهو يتأمّل ذلك المشهد من بين أصابعه التي انحرفت فوق محجر العين، تذكّر غرابة حلم لا ينتهي.

ذلك الحلم نفسه شاهده ماساكي أكثر من مرة، وعلى الأرجح، منذ أن أتى إلى هنا وهو يحلم به كلَّ ليلة دون انقطاع ولو لليلة واحدة. انتبه لذلك ليلة أمس.

فلقد شاهد مرّةً أخرى حلماً مشابهاً تماماً للحلم الذي شاهده ليل أمس الأول ولكنّه كان أكثر وضوحاً. وعندما فكّر أنّه أمرٌ عجيب، تذكّر بشكلٍ ضبابي مبهم أنّه في اليوم السابق له أيضاً شاهد الحلم نفسه. عندها تابعت الذاكرة عائدة إلى اليوم الذي قبله واليوم الذي قبله،

وتدريجياً، تذكر بشكل ضئيل أنه يشاهد الحلم نفسه تقريباً يومياً وإن كان قد أصبح يتباعد متقطعاً إلى قطع صغيرة.

ماساكي يستطيع الآن أن يتذكر ذلك الحلم من البداية إلى النهاية بكل تفاصيله.

كان محتوى الحلم كما يلي:

ماساكي مختفٍ في الليل وراء ظلٍّ ما، يتأمل امرأة ما. المرأة لا زالت في عمر الشباب، ربما تخطت العشرين من العمر بقليل. توليه ظهرها، وهي عارية تماماً وتقف فوق ما يشبه حصيرةً من أعواد الخيزران.

توجد بجوار أقدامها الملابس التي خلعتها لتوها. وبجانباها كوزٌ وطستٌ ملآن بالماء. المكان مجهولٌ لديه. ولكنّه في منطقة معزولة ومنغلقة تماماً ولا يوجد ظلٌّ لإنسان غيرهما. وتُرى غابة أشجار عند مرمى البصر.

القمر على غير عادته في كامل الوضوح. جسد المرأة المتألق يعكس تلك الأشعة بغموضٍ وكأنّه يلتحف بهالةٍ من الضوء.

الشعر الأسود الفاحم، الغني والوفير والذي يصل إلى خصرها، ينعكس بجمالٍ على بشرةٍ بيضاء مثل الثلج. تعاني المرأة بشدةٍ منذ مدةٍ في محاولة تصفيفه بالمشط. العضد التي تحمل المرفق لأعلى كأنّها فراشة تستريح فوق زهرة. تقف فوق الرأس وهي تهتز قليلاً وببطء. العنق الطويل المنحني قليلاً، يُظهر الفك السفلي ثم يُخفيه مرّةً أخرى بسرعةٍ وخفة. الكتف صغير. الظهر يلمع وكأنّه قطعة من الحلوى.

بعدها جمعت الشعر، حَلَّت المرأة ذراعيها المعقودتين بهدوءٍ وأنزلتهما لأسفل. وفي الحال تحوّلت الفراشة وتغيّرت هيئتها إلى

مشطٍ صغير.

طوال تلك الفترة كانت المرأة تتأمل لون القمر الذي ينعكس على سطح الطست.

بعد فترة، وعندما وصلت إحدى ركبتيها إلى الأرض ببطء، غرفت ذلك القمر بالكوز الذي في يدها. اهتز البدر المكتمل على سطح الماء في الكوز.

كان ماساكي يتابع في شغف ونشوة ذلك المنظر المريب من دون أن يبعد عينيه.

أخيرًا، أمالت المرأة الكوز بشيءٍ من التردد فوق حافة الكتف. فانساب الماء في هدوءٍ ليرطب جفاف البشرة. لمع الظهر للحظة بلون الذهب.

ثم أصابت اللمعة مقللة ماساكي في الحال. التفكير في وجهها المحجوب عنه، جعل جسد ماساكي الذي كان حتى تلك اللحظة متخفيًا يكتفم أنفاسه، يرتعش. ومن دون وعي ضغط بأصابع قدمه بقوة على عقدة الحُف. تركت المرأة الكوز، ثم قامت واقفة فسقط المشط من على رأسها فجأة بلا وعي منها.

فارتطم بحصيرة أعواد الخيزران وارتدَّ لأعلى. تطايرت قطرات الماء. اندفع الشعر المبتل متحررًا على الجسد وكأنه نافورة ماء. وضعت المرأة يدها عليه. وانعقد الذراعان مرّةً أخرى كفراشة...

ثم في اللحظة التي توشك المرأة على الالتفات إلى الخلف تجاه طيف ماساكي الذي نفذ صبره فتقدم خطوة إلى الأمام، ينتهي الحلم فجأة ويرحل بعيدًا عنما يحصل.

في المرّة الأولى التي انتبه ماساكي لهذا الحلم، مع ابتسامته الساخرة تجاه ارتفاع شهوته العادية، تمتع بتذكّر لمعان وجمال منظر تلك المرأة المجهولة.

المرأة لا توجد في ذاكرته. وهذا الأمر مؤكد تمامًا، إذ فُكّر في عدم وجود شيء بالذاكرة يمكن مقارنته بالجمال الذي ظهر له في ذلك الجسد العاري. ولكنه شعر لسبب ما بالحنين تجاه تلك المرأة. كما لو أنها شخص كان يعرفه معرفة حميمة لمدة طويلة في ما مضى. جرّب أن يشكّ في أن تكون المرأة هي امرأة المظلة التي كان على وشك نسيانها. ولكنها على ما يبدو لم تكن هي بأيّ حال. يوجد في ظهر امرأة الحلم جمالٌ حزينٌ لا تملكه المرأة التي لمحها في محطة القطار. يوجد داخل الحلم استحالةٌ لا تسكن إلا في الأحلام.

تذكّر ماساكي فجأة حكاية المرأة العجوز التي سمعها في الليلة السابقة. وفكّر أنّ تلك الحكاية البائسة، من الممكن أن تنقلب في الذاكرة على عقبيها بشكل غير متوقّع وتظهر كحلم شهواني، على العكس تمامًا من الواقع. فكّر في وجود هذه الظاهرة، كلّما كانت مشاعر الشفقة عميقة الإخلاص، ظهرت في الحلم كفعل باهت أكثر وأكثر. وبهذا غرق فجأة في شعور بالوحدة لم يجد له مصرفًا، فأقلع عن البحث والتدقيق في كلّ الأفكار العديدة التي تلوح في عقله الباطن. إنّه حلم عجيب حقًا. ولكنه فكر في أنّه لا مانع أن يدع لغز الحلم لغزًا كما هو.

ولكن الأمر كان مختلفًا هذا الصباح. فلقد رأى اليوم الحلم نفسه الذي حلم به أمس وأمس الأول. بل وعلى ما يبدو من قبل أن يسمع

حكاية المرأة العجوز وهو مستمر في رؤيته لفترة طويلة.
فكّر ماساكي أنّ ذلك أمر غير مستحيل الوقوع. ربما يكون التعب
والإجهاد البدني سببًا لذلك. ولكن كان الحلمان، منذ البداية وحتى
النهاية، متشابهين تمامًا، وهو أمر غير طبيعي، مهما أعملنا فيه الفكر.
كان ماساكي في هذه الأثناء قد خرج ووقف في الحديقة يفكر بتلك
الشكوك متحيرًا.

هذا الصباح، بعد رؤية ذلك الحلم مباشرة تصادف أن تذكر ماساكي
شعرًا يقول:

أقطرات الندى فوق زهرة السحلبية التي يفوح منها قليلٌ من العطر،
هي مثل قطرات الدمع فوق عين الحبيبة، حتى لو لم يكن معي شيء
أهديه لها كبرهان حب، يصعب عليّ قطف تلك الزهرة المخفية في
ظلام الليل.

لا، كلمة تذكر ليست هي الكلمة المناسبة. فالكلمات لم تصبح
حروفًا ثم أصواتًا، بل فجأة طفت وخرجت من تلقاء نفسها إلى فمه.
ولأنّ ذلك كان مفاجأة شديدة له، شعر ماساكي وكأنّ شخصًا ما قد
استعار فمه وهمس بذلك الكلام، فأحسّ أنّ مزاجه قد تعكّر قليلًا.
والحقيقة أنّ ماساكي ظلّ لفترة من الوقت لا يستطيع تذكر أصل
هذا الشعر. بعد أن خرج إلى الحديقة وظلّ يفكر في هذا وذاك، أخيرًا،
وتقريبًا بالصدفة البحتة، وصل إلى أصل ذلك الشعر.

كان الشعر هو السطور الأولى من قصيدة «سوشوشو» للشاعر
الصيني لي هي⁽¹⁾. ثم كان ذلك مفاجأة ثانية لماساكي.

(1) لي هي (790 || 816): شاعر صيني عاش في أواخر عصر إمبراطورية تانغ. مات

لم يكن ماساكي من محبي قراءة أشعار اللي هي بشكلٍ دائم. لقد قرأ فقط منذ زمن طويل مضي ديوان أعمال لي هي الكاملة، وحفظ بعض المقاطع منها فقط. قصيدة أسوشوشو هي إحداها، وحاليًا انقطع عنها ولم يعد يرددها مطلقًا.

ولكنها فجأة بُعثت، في لحظة، من أعماق الذاكرة، وارتفعت فوق أطراف شفثيه الجافتين وهو بعد لم يفيق بشكل كامل من حلمه. وكأنَّ أحدهم قد اقتطعها هي فقط عامدًا متعمدًا من وسط قطعان الكلمات الأخرى هائلة العدد. مثل الذي يضع شبكة صغيرة في حوض الأسماك فلا ينظر إلى كل أسراب الأسماك الحية الطازجة التي تتلامس قشورها، ولكنه يصيد متعمدًا الأسماك التي على وشك الموت، الغارقة في القاع. في الواقع، لم تكن هذه التجربة في هذا الصباح هي الأولى. من عدة أيام مضت، وبالضبط عندما كان يسمع صوت الماء، تذكَّر ماساكي بشكل مفاجئ مقطعًا شعريًا يقول: الماء الهادر له صدى مثل الجواهر. وقتها لم يردِّد الشعر على لسانه، ولكنه فقط برز في عقله الباطن. في العادة، ماساكي عندما يعجب بعمل، شعرًا كان أو رواية فهو يحفظه عن ظهر قلب، وكثيرًا ما تُبعث داخله مقاطع منه وكأنها نعمات لحن ما. وبرغم قول ذلك فهو لا يفحص مثل تلك المقاطع واحدة واحدة، ولذا فكَّر وقتها قليلًا، ثم أهمل الأمر بلا أية مبالاة.

ولكن الآن، وعندما يعيد التفكير في ذلك، يأتيه إحساسٌ أنَّ تلك

صغيرا ولكنه عُرف بالنبوغ والعبقرية الشعرية خاصة استخدامه المكثف للرمز وعدم تقييد شعره في تلايبب التقاليد، بل كان حرا بارعا في تكوين لوحات شعرية مليئة بالخيال والأحلام. قصيدة أسوشوشو من أشهر أعماله وهي قصيدة رومانسية من الشعر الرمزي المكثف.

المقاطع أيضًا كانت أبيات من قصيدة للشاعر elli هي. لا يعرف عنوانها. ولا يستطيع تذكّر الأبيات التي قبلها أو بعدها. ولكن كان الأمر مثل لقاء شخص تعرفه لم تقابله من فترة بعيدة في الحلم من دون توقع، فلقاء ماساكي بأشعار elli هي بلا سبب في هذا المكان من عمق الجبل، جعله بشكل ما يشعر بتعكر المزاج.

قطرات الندى فوق زهرة السحلبية التي يفوح منها قليل من العطر، هي مثل قطرات الدمع فوق عين الحبيبة، حتى لو لم يكن معي شيء أهديه لها كبرهان حب، يصعب عليّ قطف تلك الزهرة المخفية في ظلام الليل.

كان الصباح باردًا قليلًا، مما يجعل البشرة تحس بقشعريرة برد خفيفة. مع شعور ماساكي بالتشاؤم من تسلسل أفكار متنوعة على ذهنه، ردّد على لسانه أبيات الشعر تلك مرّة ثانية. ثم وجّه نظره إلى الضباب المتراكم في الحديقة، وبعد ذلك وجّه نظره كما هو إلى الأفق البعيد.

تغرّد العصافير بعيدًا على غير العادة. بدأ الضوء يلوح بالفعل في السماء، ولكن العجيب أنّ الصباح بدا بعيدًا جدًا. الجبال تتصل ببعضها متراكمة معًا وتبرز بين موجات الغيم والدخان. ظلّ لها بالغة الضخامة إلى درجة اليأس.

فجأة، سأل ماساكي نفسه elli اليوم أيّ هو الأيام يا ترى؟ منذ أن جاء إلى هنا أقلع تلقائيًا عن عدّ الشهور والأيام. ليس الأمر بسبب الارتياب في كلام إينيو ولكنه يعتقد أنّ استمراره في النوم لمدة ثلاثة أيام أمر يصعب تصديقه. بالفعل، هو يفهم أنّه لا يوجد سبب يجبر إينيو على

الكذب. ولكن لأنه مهما نام الإنسان لوقت طويل فلحظة نومه متصلة تمامًا بلحظة استيقاظه وكأنهما ملتصقتان بصمغ، ولذا فهو في النهاية لا يشعر، إلا أن الوقت الذي يمر أثناء نومه وكأنه عبارة عن ارتخاء صنعه تدفق الزمن أسفله أثناء سريانه.

في كلمة واحدة يقال: المرّت ثلاثة أيام. ولكن هل يمكن النوم طوال تلك الفترة الطويلة من دون الاستيقاظ ولو لمرة واحدة. وربما أنه مرّت علاوة على ذلك عدة أيام آخر قبل أن يعثر عليه إينيو صدفة. يوم أو يومين، أو ربما عدد أكثر من الأيام. وما دام ذلك الأمر غير مؤكد، فحتى لو أحصى عدد الأيام والشهور فهو في النهاية أمر بلا جدوى.

وهكذا لم يكن ماساكي يستطيع تحمّل القلق الذي يعاني منه، ويصعب إعطاؤه اسمًا محددًا، دون أن يُعطي له شكلاً ما بإلباسه رداءً من الجدل بهذه الطريقة. بالتأكيد، فثلاثة أيام فترة طويلة. ولكنه يشعر أن ذاكرته أثناء تيهه في وسط الجبل، ليست ثلاثة أيام فقط، وإنما أكثر من ذلك، يشعر وكأنه مرّ عليها عدة أشهر، أو عدة أعوام. لا بل لا يمكن له التعبير عن ذلك بفترة زمنية مهما طالّت. وكأنّ الذاكرة قد فصلت وأبعدت عن مسار الزمن تمامًا من خلال شيء ما آخر يختلف عن الزمن، أكثر من كونها عبارة عن فجوة وجدت من خلال زمن ما محدد. يوجد لدى ماساكي شعور خادع غريب نسبيًا محتواه أنه قد انفصل عن الزمن الواقعي وأصبح بينهما فجوة. ليس فقط لأنه لا يستطيع التأكّد من تاريخ اليوم في التقويم. ولكن لأنه في هذا المكان، يبدو وكأنّ زمنًا آخر ينساب. أو كأنّ الزمن نفسه توقف عن الحركة. يتكاثف هذا الشعور بقلبه على شكل قلق.

هناك عدة أسباب لمثل هذا القلق. مثلاً، أحد هذه الأسباب هو فقدانه لساعة الجيب التي كان يحملها دائماً، في مكان ما لا يعرفه. يبدو أنها سقطت منه أثناء الطريق في الجبل.

ولكن، بالإضافة إلى هذا السبب، يوجد كذلك سببان مهمان.

الأول هو منظر هذه الحديقة التي يقف فيها الآن.

يخرج ماساكي كلَّ يوم تقريباً إلى الحديقة، ويرى بأم عينيه تفاصيل تلك التغيرات المتسارعة فيها. وكان ذلك في منتهى الغرابة. في البداية كان يعتقد أنَّ ذلك بسبب أوهامه. ولكن تدريجياً ومع وضوح المناظر بدرجة كبيرة، ما يشاهده حالياً أمام عينيه أصبح أمراً غير مشكوك فيه.

يدخل الفراش، وعندما يفتح عينيه في صباح اليوم التالي يجد الزهور قد نمت وكبرت. وفروع الأشجار امتدت وطالت. والأوراق ازدادت اخضراراً. وكل ذلك بشكل واضح إلى درجة أنَّه يمكن ملاحظته بمجرد النظر.

وكأنَّ ذلك من خلال قوَّةٍ مختلفةٍ عن قوَّة الطبيعة، وكأنَّها تعمل على حثِّ وتسريع النمو بشكل لافت. لا، ليس حثاً وتسريعاً، بل كان الأمر يبدو وكأنَّها تفرض النمو عنوةً وغضباً لدرجة تقترب من الألم والمعاناة. ولم تكن درجة ذلك النمو موحَّدة. التغيُّر يزداد تدريجياً، بدءاً من الكوخ الذي يقيم فيه ماساكي، وصولاً إلى المكان الذي توجد فيه المرأة العجوز، مروراً بقاعة صلاة الزن. يعوجُّ الزمن أكثر وينساب بسرعة أكبر كلما اقترب من كوخ المرأة، بالضبط وكأن انسياب الزمن يشبه تدحرج مخروط أفقيّاً تجاه كوخ المرأة بعد تثبيت قمته على الأرض.

كذلك يوجد سبب آخر، وهو الهلاوس البصرية والسمعية التي

تهاجم ماساكي من وقت لآخر.

يترك الفراش ويرتدي خفّ القشّ. ينفض الأتربة من فوق كتفه. يضع عودتيّ الأكل فوق آنية الطعام. يضع يده على باب المرحاض. يغلق حقيبة سفره. يتشاءب. يحك رأسه... في كلّ حركةٍ من حركاته اليومية العادية تلك، يجد نفسه أحياناً راقداً وحيداً في ظلام الليل وسط هذا الجبل. فوق رأسه طيور الوقواق تصيح بين فينة وأخرى. وفي راحة يده منشفة متسخة يقبض عليها. العين تتألم من الأتربة والطين. ويشعر على خدوده بلمس الأوراق والفروع التي توشك على التآكل. والأنف تستنشق الطين. وأمام عينيه تزحف أنواعٌ من الحشرات ذوات الأرجل المتعددة. ومن فتحة الجرح ينزف دمٌ حارٌّ رطبٌ بلا توقف. ثم في قاع الظلام، تتألّق نقطتين بلونٍ أحمر قرمزي كما لو كانتا ثمريتين من ثمار الحرنكش. وكل ذلك، فيه حياة وحركة تجعله أكثر من مجرد كونه هلاوساً. وكل شيء له ملمس حقيقي ومؤكّد. فهو يمتلك قوة من الصعب مقاومتها وكأنها تقترب مهاجمة إياه. ثم تلك الظاهرة الغريبة، مع مرور الأيام، تحدث باضطراب، ولوقت أطول، وأصبحت وكأنها تأخذ ماساكي وترحل به بعيداً في أعماق الغابة.

يحاول ماساكي في بعض الأحيان أن يفكّر، بلا فائدة، في الأسطورة الشعبية التي تسمى السيرة أوراشيما⁽¹⁾ وبدأ يشعر بالقلق بعد أن رأى

(1) أسطورة أوراشيما: أسطورة شعبية يابانية تحكي عن صياد أنقذ سلحفاة صغيرة من أيدي صبية كانوا يلهون بها، وردا لصنيعه هذا اصطحبته السلحفاة إلى قصر التنين المسحور، ليقضي أياما سعيدة. ثم عند عودته أعطته صندوقا صغيرا وقالت له ألا يفتحه أبدا. عندما عاد أوراشيما إلى وطنه لم يجد أحدا يعرفه، وعندما فتح الصندوق تحول في التو والحال إلى عجوز كبير أبيض الشعر. ليعلم أن أيام السعادة

بوادر الجنون تعتريه، لأنَّه يفكّر في ذلك الأمر بما يشبه الجدية. حقًا لا يوجد هنا مكانٌ فخمٌ مثل قصر التنين المسحور. لا يوجد إلاَّ عجوزٌ وحيدة على مشارف الموت الموحش. بدأ ماساكي يعتبر أنَّ هذه التخيّلات والهلاوس لا بُدَّ وأنها، في النهاية، من صنع الممل. ولكنه رغم ذلك ما زال لا يستطيع الاطمئنان. يبدو أنَّ ماساكي لم يعد يستطيع الإيمان بأنَّه بعد هبوطه من هذا الجبل سيجد العالم الذي كان يعيش فيه فيما مضى ما زال موجودًا كما كان في السابق. فهو يعتقد أنَّه من الصعوبة بمكان أن تلتصق نهاية الزمن الذي مرَّ كيفما شاء في أرض لا يعرفها، بزمن ما قبل قيامه برحلته هذه في الأقاليم، هذا الذي استمر ينساب كذلك على هواه، ليكونا تسلسلاً واحداً من الزمن.

على الأقل، في الرحلات السابقة، لم يحدث له ولو لمرة واحدة أن شعر بتلك المعاناة. في الواقع، بعد عودته من كلِّ رحلة، وفي اليوم التالي، كانت كلُّ عناصر الحياة اليومية تعود مرةً أخرى وكأنَّ ذلك أمرًا عاديًا وطبيعيًا، ولكن على ما يبدو أنَّ حدوث ذلك الآن أمر مشكوك فيه تمامًا. بل وصل به الأمر إلى درجة ارتياحه من أنَّ ذلك الأمر مستحيل من أصله.

مثل هذه الشكوك التي بلا أيِّ دليل، ولأنَّه لا يستطيع إقناع نفسه من خلال إثبات العكس، تكون الشكوك مزعجة بدرجة أكبر. والحقيقة أنَّه كلِّما حاول ماساكي اعتبار تلك الشكوك لا نهاية لها، شعر بزيادة القلق أكثر وأكثر بلا جدوى.

بدأ الضباب يقلُّ شيئًا فشيئًا. وشعر ماساكي فجأة بطيف إنسان ما، فنظر إلى الخلف.

المعدودة التي قضاها في قصر التنين هي عبارة عن مئات السنين من عمره.

كان باب قاعة صلاة الزن مغلّقاً كما هو .
وعندما توقف عن تفكيره العميق، نظر إلى السماء مرّةً أخرى وهو
يتنهد. يفرد طائر الغراب الأسود جناحيه بفحولة وسط غيم الأفق
البعيد. استدار ماساكي للخلف، وكان على وشك العودة إلى كوخه،
بجوار قدمه يوجد حلزون يزحف ببطء. أثره على الأرض يلمع مثل
مسحوقٍ من الفضة.

بعد ذلك وحتى بعد مرور عدة ليالٍ أخرى، ظلّ ماساكي مستمرّاً في
رؤية الحلم نفسه.

في كلّ مرّةٍ تخلع المرأة ملابسها، تكرر صبّ لمعة متجددة على
جسدها. وقد أصبح منظرها هذا أكثر انكشافاً، وتصبح أصعب معرفة
هل هو حلمٌ أم حقيقة، وحتى بعد استيقاظه، كان ماساكي يظلُّ ثملاً من
بواقى رائحة الذاكرة القوية.

حتى الآن، يشعر ماساكي بقليلٍ من التشاؤم بسبب هذا الحلم. أو
ربما كان التكرار المُلحّ للمناظر، هو ما يجعله يشكُّ أنّه بداية أعراض
الجنون. ولكن حتى تلك الأحاسيس الكثيبة قليلاً، أصبحت بالفعل
سحراً عجيبيّاً يجذبه للمرأة. عندما يتهيأ للنوم يجتاح ماساكي شعوران،
شعور الفرحه لأنّه سيستطيع مقابلة المرأة، ومعه شعور الخوف من
فقدانها فجأة في تلك الليلة. ثم في الصباح التالي، وبعد أن يتحقق
اللقاء ثانية بشكل أكثر تأكيداً من الليلة السابقة، يغوص بمفرده في قاع
ذكرى اللقاء المتبقية وهو يحس بنشوة عارمة.

الأمس واليوم هطلت الأمطار في النهار قليلاً. فرح ماساكي لذلك.

ثم تمنى لو أنها تستمر في الهطول طويلاً بلا انقطاع. كان ماساكي ينوي أن يهبط من الجبل مباشرةً فور شفاء جروحه كما أبلغ إينيو. ولكنه منذ أن سحرتة امرأة الحلم، بدأت هذه النية تضعف رويداً رويداً، وعلى كلِّ حالٍ بدأ يعاني مؤخراً من التفكير في هذه الحُجَّة أو تلك كسببٍ يجعله يبقى. لدى ماساكي شعور بأنَّ هذا الجبل يتلعه. وما جعله يحس بهذا الإحساس، هو تأكده من حالة الجرح أمس. ذلك الجرح الذي كان عبارة عن شقٍ في اللحم متورم بلون قرمزي جعله السم يفرز صديداً، أثناء مراقبته للجرح على مدى عشرة أيام، لاحظ انه شفي تماماً ولم يتبق منه إلا قشرة فقط. حتى الألم اختفى. وتوقفت أعراض التسمم من حُمى وقيء.

حدث لماساكي شكٌ بسبب ذلك. بالطبع شفاء الجرح أمر يجب أن يفرحه. ولكنه حتى الأسبوع الماضي، لم يكن يستطيع الوقوف من دون الاتكاء على عكازة. والآن أصبح يتجوّل داخل المعبد بحرية من دون عائق. هل هذا بفضل الدواء؟ ربما يكون الأمر كذلك. ولكن حتى ولو كان كذلك، من المفترض أنه ما زال يحتاج لبضعة أيام كي يشفى تماماً. نظر ماساكي الواقف في الحديقة بعد توقّف الأمطار في الليل، إلى الزهور المتألقة في لمعة ضوء القمر، ثم أخفض بصره ناحية جرح ساقه في قلق. ثم فكّر...

ربما أكون قد أودعت ساقِي من دون أن أدري في تيار الزمن العنيف في هذه الأرض. ۞

يظهر قمر ليلة الرابع عشر ضبابياً، من خلف السحاب الشفّاف المتحرّك. الرياح تهبُّ في السماء.
رفع ماساكي رأسه ناظراً إلى أعلى.

مع مرور الأيام يزداد القمر انكشافاً وظهوراً وكأنَّ غطاءً أزرق بلون السماء ينحسر تدريجياً من على سطح مرآة. من حدوث هذا الاكتمال فقط يمكن الإحساس حقاً بمرور الزمن. ثم وكأنَّه مثل الشخص الذي يتأكد من كثرة الأتربة المتراكمة على الأشياء بعد دخوله كوخ صغير لا يرتاده أحد، فقط من منظر الحديقة التي ترتوي بأشعة السماء البيضاء كلما ازداد الليل ظلمة، كان ماساكي يستطيع الإحساس بمرور الزمن واقعيًا. الزمن ينساب من السماء بلا انقطاع. كل شيء ينمو بدرجة مؤلمة متجهًا نحو لحظة ما، وكأنَّه تلبية لنداء القمر، الزهور يتزايد عطرها، وأشجار الغابة الخضراء تمد أغصانها وأوراقها.

تيار الزمن السريع ينصبّ بازدياد على آثار الجرح محاولاً تطهيره من تلك البقايا الضئيلة للغاية. ثم من قاع ذلك التيار يمد ذلك المنظر الليلي ذراعيه بلا توقف، محاولاً سحب ماساكي وإغراقه في أعماق الهاوية. فقط في الوقت الذي يُقبض عليه بتلك اليدين المظلمتين المشدودتين بقوة، يشعر ماساكي أحياناً بألم خفيف جداً في فتحة الجرح. ثم يأتيه شعورٌ فقط أثناء سقوطه وترسبه في قاع تلك الأوهام أنه موجود في الزمن الماضي.

حلم المرأة مرتبط بعمق مع هذا الجبل. سبب تفكيره في هذه الأفكار، وهذه الطريقة التي تتضح تدريجياً، هو أنه يشعر وكأنَّه يتلامس في مكان ما مع تتبع ذلك الزمن. من المفترض أنه لن يستطيع رؤية المرأة مرَّةً أخرى بعد نزوله من الجبل وإلى الأبد. ترك المعبد والرحيل عنه معناه الاستغناء عن المرأة تمامًا. كان ماساكي ينظر إلى المرأة وقتاً أطول من اللازم وكذلك أبعد من اللازم، إلى الدرجة التي يبأس فيها ويعتبرها مجرد ذكرى عجيبة حدثت أثناء الرحلة.

كأنه قد استشف ما في قلب ماساكي من رغبة في الامتناع عن الرحيل عن الجبل، أصبح إينيو يسأله من وقت لآخر عن حالة الجرح. وكان ماساكي يتهرَّب من ذلك الموقف باختلاق كذبة ما. ولأنَّ تكرار ذلك جعله يعاني نفسيًّا منه، أصبح مؤخرًا يحاول تلافي رؤية إينيو وجهاً لوجه قدر الإمكان، إلَّا فقط عند اضطراره للذهاب إلى قاعة صلاة الزن لتناول الطعام.

وبالطبع كان ذلك شيء يجعل ماساكي ذاته يشعر تجاهه بالغرابة. وأحيانًا، يشكُّ أن كلَّ تلك الأحلام والهلاوس عبارة عن أعراض جانبية سببها سُمُّ الثعبان. ولكنه لا يستطيع التفكير أبعد من ذلك. كلُّ أنواع الشكوك يتم ابتلاعها في لمح البصر بواسطة القوَّة الهائلة لكل التجارب العجيبة تلك.

وكانت تلك القوَّة تحاول أحيانًا أن تتلعب حتى هذه اللحظة الواقعية. وكأنَّ لحظة اليقظة هذه هي بالذات هلاوس مبهمة. وكأنَّ الحلم المرثي هو ماساكي ذاته.

حسنًا، في الليلة الخامسة عشرة بعد عودة ماساكي إلى الوعي. إينيو بعد تناول طعام العشاء في قاعة صلاة الزن، ووضع صحن الطعام، وبطريقته اللامبالية المعهودة قال إينيو موجهاً كلامه لماساكي:

«هل رأيت القمر الليلة يا سيد ماساكي؟»

«القمر؟ لا، لم أشاهده الليلة بعد.»

«إنَّه بدرٌ. لقد مرَّ على مجيئك هنا نصف شهر بالتمام. على حد ما أرى، جرحك قد طاب بالفعل. ما رأيك، ألم يحن الوقت للرحيل عن الجبل ومواصلة رحلتك؟»

لم يجب ماساكي على سؤال إينيو بل فقط ظلَّ مطرق الرأس أمامه.
«يا سيد ماساكي، لا توجد أيُّ فائدةٍ من بقائك هنا. إذا كان الجرح
قد شفي، فمن الأفضل لك أن تغادر هذا المكان ولو في صباح الغد.
وسأقوم أنا بإرشادك حتى سفح الجبل.»

«.....»

«سيد ماساكي!»

«... ألا يمكن بأيِّ حالٍ أن تسمح لي بالبقاء لفترة هنا؟»

لم يجيب إينيو.

«وما السبب؟»

شحب وجه ماساكي ومن دون وعي ارتفع صوته عاليًا بعنف.
«ما السبب؟ أرجوك أخبرني أنت ما السبب. كما تفضلت بالقول
فالجرح قد شفي بالفعل. ولقد قمتَ أيها الراهب المبعجل بفعل الكثير
والكثير من أجلي. وأعلم تمام العلم أن طلب ما هو فوق ذلك يعتبر من
قبيل الوقاحة. ولكن هل يوجد سبب معين يجعلك أيها الراهب المبعجل
ترغب في طردي من هنا؟ إنني محافظٌ على وعدي لك بشكل مؤكد.
ولم أقرب ولو خطوة واحدة من الكوخ. وفيما عدا الإثقال عليك
باطعامي مثلما تفعل الآن، أصبحت لا أقلقك بأيِّ عبء. وكشكر على
رعايتك لي طوال تلك الفترة، كنت أفكر أن أردَّ لك الجميل على شكل
تبسُّعٍ بالمال للمعبد. هل إقامتي هنا غير مناسبة؟ ولكن هذا أيضًا لن
يدوم طوال العمر. بل فقط لفترة قصيرة، اتركني فقط لمدة قصيرة!»

في مواجهة ماساكي الذي يلحُّ في طلب الإجابة وقد بدا فاقداً
لرشدته، تكلم إينيو الجالس على صخرة بنفسجية جافة، بالكلمات

التالية في برود بالغ:

﴿في الأصل، أنا لم أقدم على إنقاذك بسبب الرحمة. بل لقد قمت بإنقاذك فقط للتغلب على شهوة النفس التي هجمت عليّ للحظة وجعلتني، على وشك أن أتركك كما أنت.﴾

الصمت لم يترك الفرصة واستحوذ على ما تبقى من فراغ. ذُهل ماساكي للحظة. ثم عندما جذب جسده الذي اندفع للأمام، لمست يده الأرض كما هي في حركتها. صدر صوت خافت من الأرضية ذات الألواح الخشبية.

﴿ولكن لماذا يا سيد ماساكي أنت متمسك أصلاً بالبقاء في هذا المكان؟﴾

﴿.....﴾

﴿لا يوجد هنا شيء بالمرّة. لا شيء. ولا يُعقل أن يوجد شخص لا يفهم ذلك.﴾

لفترة ظلّ ماساكي صامتاً مطأطأ الرأس. ثم أخيراً أوماً مرّة واحدة ورأسه كما هو.

﴿حسناً فلنغادر هذا المكان في الصباح الباكر غداً. من الأفضل أن تستريح جيداً اليوم يا سيد ماساكي.﴾

بعد أن وضع أواني الطعام بعضها فوق بعض ووقف، ألقى إينيو نظرة على ماساكي ثم ترك المكان ورحل بمفرده.

في وسط الهدوء المطبق فقد ماساكي المكان الذي يصرف فيه مشاعره المهتاجة بعنف.

﴿لماذا تتمسك بالبقاء هنا بهذا الشكل؟...﴾

إزاء سؤال إينيو هذا الذي ليس له حيلة نحوه، فكّر ماساكي لحظة في الردّ بقوله: «من أجل امرأة الحلم». ثم فكّر بعدها في غباء ذلك الردّ. وعند ذلك تراجع خيال المرأة بخفّة إلى العالم الذي يجب عليه السكن فيه، وكأنّ الزهرة التي كان يتأملها أمام عينيه قد سقطت فجأة كما هي في كامل تفتحها. تلك الهيئة التي كانت قد بدأت تظهر تدريجيًا في عالم الواقع، وكأنها تصطبغ به، ابتعدت مرّةً أخرى للأسف في غياهب الحلم.

في ذات اللحظة، ملأت قلب ماساكي، بهدوء، كلمات كثيرة، مثل الأحلام والحقائق، وبدأت تؤلم كلّ ركن من أركان هذا العالم. المرأة أصبحت أسيرة في سجن الكلمات. وأغلق ماساكي عليها أفعالها. ثم حدّث نفسه بمفرده وهو مسحورٌ بشكّ مقلق.

«هل وقعتُ في حب تلك المرأة؟»

عندها، ضحكة مكتومة صدرت تقريبًا بلا وعي، هي التي أنقذت ماساكي من تلك الحالة بصعوبة بالغة. ثم ضحك هذه المرّة متعمدًا مستندًا على تلك الضحكة.

توجد مشاعر إذا لم تسمّها فلن تعرفها. وبالإضافة إلى ذلك، توجد مشاعرٌ ربما تكون مختلفة في الأصل، ولكن تسميتها، يجعلها تتحرّر لتناسب مع تلك الأسماء. وإذا حاولنا الانتباه نجد أننا نعتقد أنّ كلاهما الشيء نفسه.

ماساكي لا يعرف إن كان يحب فعلاً تلك المرأة أم لا. ولكنه عندما جرّب أن يشكّ في ذلك مستخدمًا الكلمات، بدأ يعتقد، في الواقع، أنّه يحبها فعلاً. ثم بدأ يفكر في غباء ذلك. بالفعل هو لا يتذكّر المرأة. ولكن في النهاية وبما أنها تظهر في حلمه فهي من صنع ماساكي نفسه.

أي أنها وهم من الأوهام.

يقول إنه يحبها. حسناً إذا كان الأمر كذلك فليجرب أن يشكَّ أنه يتمنى في الحلم أن يُحب. وأخيراً شعر بالتقزز وفكر كما يلي.

ليس ذلك حب أو كره. الحلم عبارة عن حلم... إنني أهذي ولا شك. وبالتأكيد، فالراهب المبجل يمتلئ قلبه بالاحتقار نحوي ولا ريب.

لعن ماساكي كلماته العديدة التي تفوه بها وهو شبه مغيب الوعي. ولعن ذلك الغباء المثير للفكاهة.

لقد فهمت، ماذا لو كان الأمر مجرد كراهية من الراهب إينيو نحوي؟ أيما كان السبب في تلك الكراهية، فعندها لا يجب القلق،...
مرةً أخرى وقع ماساكي أسير السخرية من الذات. ثم حاول أن يلقي بكل المشاعر والأحاسيس التي شعر بها في قلبه تجاه تلك المرأة حتى ذلك اليوم.

ثم في اللحظة نفسها، تبدل فجأة حال المكان وتغيّر فأصبح في غابة الليل المظلمة.

كان ذلك المشهد العادي الذي تلمع فيه النقطتان باللون القرمزي في الظلام ويصيح فيه طائر الوقواق. ولكن هذا المرّة فقط المنظر يختلف قليلاً. مهما حاول أن يتشكك، فلا يمكن له إلا أن يعتقد أنه موجود في الواقع بنفسه في ذلك المكان. لا، بل إنَّ جسده بأكمله يحس بذلك في وضوح تام، بلا أيِّ ريبٍ على الإطلاق. يشير جرح القدم آلاماً مبرحة مع حمى شديدة لم يعرفها من قبل قطّ. راحة يده الملطخة بالدماء، ترتعش متسخة بالطين. جمع قوته محاولاً إيقاف رجفة أصابعه، فدخل الطين تحت أظافره. ضغطت أغصان الشجر التي على وشك التعفن

على الأذن مصدرة صوت انسحاق. أنفاسه المهتاجة، تجعل أوراق الأشجار الذابلة التي حول فمه توشك أن تنقلب على ظهرها ولكنها تعود كما كانت.

«... هل هذه أيضًا هلاوس؟»

فجأة نظر ماساكي إلى النقطتين أمامه، وعلى الفور فقد ماساكي الدماء التي تجري في شرايينه كلها، وشعر بإحساس أن حتى الدماء المتبقية بصعوبة كأنها قد تجمدت وأصبحت باردة. الضجيج الذي تصدره الأغصان والأوراق التي تغطي ما فوق رأسه، بدا ضئيلاً يبتعد بعيداً، ثم في وقت ما، تحوّل فأصبح هو صوت النهر الذي سمعه من قبل.

غرق العالم في الظلام. جمجمة الرأس تؤلمه بعنفٍ كأنّ خلايا المخ تنتفخ من الداخل وتضغط عليها. ويخرج من فمه لعاب كثيف يشبه صمغ شجر الصنوبر.

ومن وقت لآخر يغيب عن الوعي. ولكن عندما يحدث ذلك، تظهر قوّة ما شديدة البأس تجعل وعيه يستيقظ عنوة، وتحاول أن تجذبه إليها. يظهر بشكل باهت خلف النقطتين ما يبدو أنّه ظلُّ إنسان. همس ماساكي من دون وعي.

«هل هي تلك المرأة؟»

ولكن لم يخرج منه صوت. ولم يستطع النظر بعينه للمكان بوضوح. اليد التي تمتد لا تصل. ولكن المرأة الآن قريبة منه. تقريباً إلى درجة استطاعته الإحساس حتى بحرارة جسدها. وكان ذلك مثيراً أكثر لحنقه. مرّةً أخرى أصدر ماساكي صوتاً، هذه المرّة حاول أن يتحدث

إلى المرأة. فإذا بنبرة عنيفة حزينة تقول فجأة:

«لا تقترب!!»

في اللحظة التالية، بعد أن مرَّ بفترة من الوقت مشوَّش الوعي، وجد ماساكي نفسه مرَّةً أخرى جالسًا وحيدًا في منتصف قاعة صلاة الزن. لفترة ظلَّ على تلك الحالة شارد الذهن ينظر. يتأمل فقط. أخيرًا حرَّك نظره قليلًا ثم استمر أكثر وأدار رأسه لتفقد ما حوله بخوفٍ وقلق. ولكن لا يوجد أيُّ شيءٍ غريب. نظر بعد أن أمسك شمعة وأنار المكان. ولكن ليس هناك أيُّ أثرٍ لأيِّ شيءٍ. حتى آلام الجرح اختفت.

لأول مرَّة يحسُّ بالخوف. ثم ومن أجل ذلك، انهارت كلُّ الأفكار في لحظة.

«أنا سقطت واقعًا في وسط الجبل، بل وفي الوقت نفسه أجلس في وسط قاعة صلاة الزن... ثم في داخل الحلم...»

كلِّما استغرق في التفكير، ازدادت شدة الخوف. وأخيرًا، وصل إلى سمعه صوت حُفٍّ من القش يمشي في الحديقة. «أيها الراهب المبجل، أتقول لي: ارحل عن الجبل، رغم معرفتك بحالتي غير الطبيعية هذه؟»

نهض ماساكي وهو يتنهد بأسى. فهو على أيِّ حال ينبغي عليه مغادرة هذا المكان في صباح الغد.

عند مروره من قاعة صلاة الزن وهو يسير في طريقه إلى الكوخ، ألقى ماساكي نظرة على زهور الحديقة.

«لماذا كانت الأحلام والأوهام مشكوك فيها، إلا أنني لا يمكن أن

أرتاب في جمال تلك الزهور المتفتحة هنا بكثرة... وكذلك جرح
قدمي. آه، ولكن رغم ذلك، يا لقوة ضوء القمر هذه الليلة. لم يسبق
لي مطلقاً أن رأيت قمرًا بهذا الجمال، قمر يبعث على التشاؤم بقدر
جماله هذا. لونه أحمر، حمرةً كأنها مصبوغة بالدماء... ربما يوجد تغيير
ما في حلم الليلة... لا، من المفترض أن هناك تغييرًا... في شيء ما،
بالتأكيد...]]

وضع يده بهدوء على وجنته التي شحبت فاقدة لونها. أحسَّ أن هنا
فقط ما زالت رائحة التربة السابقة متبقية بشكل ضئيل.

ولكن كلما ازداد أمله، فارقه النعاس أكثر فأكثر.
حكَّ ماساكي رأسه في عمق الليل، وهو في مزاج غاضب، ونهض
من الفراش بعد أن دفع الغطاء.

الطريق إلى عالم الأحلام مغلقة بسبب التمللم الدافئ. علاوة على
ذلك، كان ماساكي يتقلَّب في فراشه مراتٍ ومرات، وأصبح الذهاب
لاستقبال النعاس مثيرًا لحنقه، وأخيرًا وبعد تفكير عميق قرَّر النهوض
من الفراش وانتظار مجيء النعاس.

كان سطح الغطاء مضيئًا. يتسرَّب شعاع ضبابي للقمر من النافذة
التي تطل على الغرب.
]]القمر؟....]]

نظر ماساكي بعينه إلى ذلك الشعاع. ثم وكأن شيئًا ما قد أغراه
بذلك، هبط إلى مدخل الغرفة، ثم ارتدى الحُفَّ المصنوع من القش
ووقف أمام باب الكوخ.

كان الباب مفتوحًا قليلًا. ألوان القمر العابقة في الحديقة، وكأنها قد حلَّت غطاء قرطاس الرائحة الفواحة فدخل العطر من بين الفراغات وأحاط بماساكي. كانت الذراع الغارقة في عرقها، تلمع بلون أبيض به زرقعة وكأنها تمثال ثلج. مع تحبُّطه في ضباب الظلام، فتح الباب فتحة أوسع وخرج متجهًا نحو الحديقة. عندها وقف ماساكي متجمدًا من النشوة التي وقع فيها لفترة بسبب المشهد الذي ظهر أمام عينيه. كان ذلك المنظر على الأغلب كافيًا جدًّا للشكِّ في كونه حقيقة واقعة.

في السماء ذات اللون الرمادي الغامق، لا يوجد أية غيوم بالمرّة، ومعلّق فيها مرآة مستديرة تتألّق لامعة وتحيط بها هالة. كان القمر بالفعل قد تخلّص من ذلك اللون الأحمر الغريب الذي كان يصبغه منذ قليل، وكان منظره لا يمكن أن يسمح بأن يصبغ بأيّ لونٍ آخر إلاّ لون الذهب الخالص. والنجوم التي جعلته مركزها تتلألأ في قبة السماء وكأنها تختلس النظر متلصّصة من فتحات صغيرة لا نهائية تم ثقبها جميعًا في السماء، الليل يحتجز الأشعة الممتلئة في الأفق البعيد بطبقة الظلام مرّة واحدة.

برز شكل الجبل وسط هذا الضوء غير العادي إلى الأمام من دون أن يغرق في الظلام، وكأنّه صورة مطبوعة على ورق. كانت الأخاديد ضبابية خافتة كأنها صنّعت بعناية بواسطة الأصابع. ذلك الظلُّ البسيط الذي أخفى عمقه، بدأ تدريجاً في الذوبان مع الظلام كلّما اقترب من المكان، يُفتقد لمرّة، وشم يرتفع فجأة بارزاً من القاع، ليغيّر منظر غابة أشجار البلوط المزروعة أمام عينيه.

الحديقة، محمية بالغابة الواقعة خلفها، وتفعل ما تشاء بأشعة القمر التي تبدو كما لو كانت تهطل أمطارًا ودخانًا. تنتشر أوراق زهور السوسن والسحلبية ذات الألوان الزاهية، وكأنها ستنشط، وبرزت في الظلام في ذات اللحظة التي يبدو أنها ستظهر فيها مصقولة، كزينة محار اللؤلؤ. أغصان شجر الورد الخضراء، وهي تخفي بحذر في أعماقها اهتزاز الفروع الزاهرة، وكأنها تستمتع بخيانة ألوان الأزهار المتفتحة بعنفوانٍ واضطراب لها. أوراق نبات الشاي لامعة. زهور الفجل متفتحة بعددٍ لا نهائي. تدلّت سنبلات الأرز العديدة في شكل أقواس كأنها أسراب السمك التي تجمّعت على أنوار سفن الصيد تقفز على سطح الماء بعد أن علقت في شباك الصياد، امتدّت أوراقها ثانية مستقيمة، وكأنها رذاذ متناثر. بل وتلك الأوراق والزهور، إذا أخذت أيّ واحدةٍ منها وتأمّلتها ستجدها كبيرة الحجم بدرجة غير عادية وأوراقها غليظة. الأعشاب والأشجار ترتوي بأشعة متألّقة عميقة. لا يوجد أيّ شكّ في أننا في الليل. ولكن، المكان مضيءٌ ومشرقٌ ويتلألأ إلى درجة تُشعرك بالشكّ في ذلك. هدوء تام، لا يُسمع أيّ نوع من الأصوات. التيار الذي كان يتدفّق بعنفوان، متوقّف في تلك اللحظة، كلُّ النباتات التي في الحديقة، تبدو كأنّ كلّاً منها تحافظ على أقصى ما لديها من نمو. استنشق ماساكي الهواء بعمق ثم بدأ السير.

ارتجّ الهدوء، وكأنّه سطح ماء اضطرب بسبب مركبة صغيرة، يفترق في سكينه ثم ينسحب ببطء تاركًا ذيوله.

لا يوجد ما يفكرّ فيه بشكل خاص. فقط يفكرّ أنّه بمجرد سيره هائمًا على وجهه، بعد فترة ستنشأ لديه الرغبة في النوم. سار منجذبًا بسحر

وجمال الزهور، ومع تقدمه في السير ناحية الجهة الأكثر ازدهارًا منها، وجد ماساكي نفسه فجأة يقف خلف قاعة صلاة الزن أمام الكوخ. وهناك انتبه أخيرًا للمكان وجوده.

بالطبع، هذه هي المرة الأولى التي يزور فيها ماساكي هذا المكان. في البداية، ولكي يظلّ محافظًا على وعده مع إينيو، بذل جهده حتى لا يقترب من هنا. ولكن سرعان ما أصبح ذلك أمرًا طبيعيًا، وتقهر الوعد نفسه إلى مساحة خارج نطاق وعيه.

لا يرى حول الكوخ تقريبًا أيّ من مظاهر الحياة. الأنواع المختلفة من الحشائش والعشب نمت حتى وصلت إلى ما فوق الركبة. لا يوجد للمبنى أية نوافذ، وفي ظلّ نبات اللبلاب الزاحف على الجدران، توجد عدة ثمرات من فاكهة ما تبدو وكأنها عيون لطبور جارحة.

هذا المنظر المهيّب، لسبب ما غير معروف أيقظ لدى ماساكي شعورًا بالحنين. والعجيب أنّه شعر وكأنّه قد جاء إلى هنا من قبل عدة مرات.

تقدم ماساكي إلى الأمام أكثر وهو يمشي فوق الحشائش بحذرٍ شديدٍ كي لا يصدر عنه صوت.

منذ قليل وصورة المرأة العجوز، التي لم يسبق لماساكي أن رآها من قبل، تمرّ داخل قلبه. سبب عدم توجه ماساكي بقدمه إلى هنا حتى الآن، شعور الشفقة الذي يشعر به بنقاء خالص تجاه المرأة العجوز، أكثر من رغبته في الحفاظ على وعده للراهب إينيو. لأنّه يعتقد أنّ أقل ما يمكنه عمله من أجلها هو تركها تعيش تلك الأيام الموحشة بمفردها.

ذلك الشعور لم يتغير قيد أنملة حتى الآن. فلا يشعر ماساكي مطلقًا

بأية رغبة في التلصص لرؤية العجوز. ورغم ذلك، تتقدم في الواقع تتقدّم خطوة بعد أخرى مقتربة من الكوخ. هناك قوّة ما لشيء ضخم يعرقل شعور السيطرة على النفس عن الرسوخ في أعماقه بشكل كامل.

«هل يا ترى تلك هي أحد أنواع الرغبة الجسدية المشوّهة؟»

تقدّم أكثر، وعندما وصل إلى الباب الخلفي للكوخ، أخفى ماساكي جسده فجأة حذرًا عندما سمع صوتًا ما. فُتح باب الكوخ وشعر بطيف شخص ما يخرج منه.

«هل هو الراهب المبجل؟»

ظلّ ماساكي مختفيًا في الظلّ، منصتًا، فجاءه صوت وطء الأرض الجافة بخفّ القشّ. أصوات الأقدام الواهنة تلك، ليست للراهب إينيو. ولكن المسافة الزمنيّة التي بين كلّ خطوةٍ وأخرى، والتي يخطوها بحذرٍ بالغ، كانت توحى كأن السائر يمشي وهو يتلَفّت خائفًا من شيء ما.

«... لا ليس هو... ليس هذا هو الراهب إينيو المبجل.»

لقد عرف ماساكي على الفور أنّ تلك هي أصوات خطوات المرأة العجوز. ثم وبسبب عدم قدرته على تحمل وجوده هناك، ارتجف جسده رغماً عنه.

كان صدى صوت الخطوات يبدو بائسًا لدرجة كبيرة. ماساكي في ذلك الوقت، كره مرّةً أخرى برودة مشاعره. المرأة العجوز تختبئ حتى من عيون إينيو فتنتظر حتى ساعة متأخرة من الليل، لكي تخرج من كوئها وهي في حالة تردد وحيرة. في هذا المعبد البوذي الكائن في وسط الجبل والذي يندر فيه وجود أثر للبشر، تنزوي المرأة في كوئ مظلم طوال اليوم، فقط لتنتظر في هدوء وسكينة زيارة الموت لها. ولا شكّ أنها قد بلغت المنتهى في استغنائها عن أشعة الشمس منذ فترة

بعيدة. أو ربما هي تجد قليلاً من المواساة في تأمل القمر كلَّ ليلة. على كلِّ حال، ما يجب قوله هو إنَّ التلصص لرؤية ذلك المنظر بسخرية، هو فعلٌ في غاية الوقاحة والندالة.

سقط ماساكي فجأة صريعاً بالشعور بالكآبة والحزن، فبدأ في السير عائداً في الطريق التي أتى منها وهو منكس الرأس. ثم هجمت عليه مرّةً أخرى المشاهد الحية نفسها التي شاهدها عندما وقع صريعاً في وسط الجبل.

ذاب الليل الوهمي سريعاً في الليل الحقيقي، ليصبحا الليل نفسه. ماساكي ومن دون أن يشعر أنّه قد استيقظ من النوم، وجد نفسه واقفاً بجوار الكوخ. ثم فجأة أحس من خلفه أنّ صوت قماش الحزام وهو ينحلّ قد لمس عظام أذنه.

نظر إلى الخلف وهو يرتعد وجلاً.

ابتلع ذلك الصوت الخافت الضئيل في لحظة واحدة كلَّ العجائب الأخرى، وانحل تماماً مع الملابس.

«هذه ليست المرأة العجوز. أجل ليست المرأة العجوز على الإطلاق... قطعاً. آه... نعم، إنّه هذا الكوخ، إنّه هذا المشهد. لماذا لم أنتبه لذلك حتى الآن؟»

أطبقت الكلمات على ماساكي. وبعد ذلك سمع صوت وقوع الملابس على الأرض، وصوت خلع خُفّ القش.

أخرج ماساكي زفيراً طويلاً مرتين أو ثلاثة مرات. ثم في اللحظة التالية، وكأنّه قد أصبح غير قادر على التحمل نظر من خلف ظلال الكوخ وعلى مدّ البصر.

«آه!»

تسرّبت تنهيدة أسي بلا صوت.
أصابت النشوة القلب وكأنها مسحوق الزهور الذي بعثرته الريح.

ما من شك. الذي يتألق تحت أشعة القمر التي تأتي من بُعدٍ لا متناهٍ،
هو الجسد العاري للمرأة الذي استمر في رؤيته عدة ليالٍ متتالية.
وكانَّ سداً قد تهدم، اندفع تيارٌ عنيفٌ للفرحة المؤلمة التي تشبه
الكرب، دائراً داخل الجسد. أخذ ماساكي يعصر بعنف لحم صدره
مستخدماً يده اليمنى كما لو أنه إذا لم يشارك ذلك الألم بألم ما آخر،
فهو لن يقدر على تحمّله. ارتفعت نبضات القلب. وهو يتنفس لاهثاً،
وقد برز ذقنه للأمام. منطقة العنق ذات البشرة البيضاء التي تعرّت،
عكست هالة القمر، وبرزت إلى الأمام وكأنها تمثالٌ منحوت من حجر
الألاباستر.

أولت المرأة ظهرها لماساكي، ووضعت يديها ببطء على شعرها.
الأصابع الرقيقة، تقوم بتعديل ذلك الشعر، وكأنها تعزف على أوتار
آلة قانون. انفلت من بين فتحات الأصابع عدد من الشعرات، وعندما
حاولت أن تلتقط الشعر، تحرك مرفقاها وكأنهما جناحان يرفرفان.
تسارعت حركة المرأة وكأنها تحاول برشاقة تقليد ذاكرة الحلم
الذي تتابع، بأقصى سرعتها. لا يوجد أي اختلاف مطلقاً بين الحلم
وبين ما يراه الآن.

أخيراً وصلت إحدى الركبتان إلى الأرض، وصبت الماء بحرص
فوق الكتف. عكس الظهر الذي تبلل عن آخره بالماء ضوء القمر.
مسح ماساكي العرق من على جبهته. خوف الانهيار يتلاحق مع

تتابع الحركات المتدفقة تباعاً.

بعد ذلك أمالت المرأة عنقها في هدوء. وبسبب ذلك لمع للحظة المشط فوق قمة شعر رأسها المجدول.

وقتها شكَّ ماساكي أنَّ الشيء الذي باعد بينه وبين المرأة في الماضي هو ذلك المشط ولا شيء غيره. وشكَّ أنَّه لو لم يسقط هذا المشط، لَمَا انتهى الحلم، ولكانت المرأة قد التفتت إلى الخلف تجاهه. ثم الآن، والمشهد أمامه يشبه الحلم تمامًا، إذا كان هناك شيء واحد يخونه، ويخفي وجه المرأة عنه إلى الأبد، فهو على الأرجح ذلك المشط، ثم تخيل لو أنَّ ذلك المشط لا يسقط من على شعر المرأة.

القمر ما زال حتى الآن مضيئاً. تحت السماء الساكنة لا يوجد إلا المرأة الوحيدة وقطرات الماء تتساقط من جسدها، قطرة قطرة، على الأرض.

فكَّر ماساكي في اللحظة المحتوم قدمها وهو يعجن بالعرق الطين الذي دخل في الفراغ بين باطن قدمه والخفَّ عدة مرات بالعرق. وقفت المرأة ببطءٍ بعد أن وضعت الإناء. نظر ماساكي متابعاً حركة المشط. عنق المرأة مائل بانحراف قليل. شعر الرأس ينتفخ. المشط يهتز.

لم يكن هناك أيُّ شكٍّ في الشيء المحتم حدوثه بالفعل بعد ذلك. بعد أن جعلت المرأة عنقها رأسياً، يقع المشط لامعاً بجمال متألق. يتراقص شعر الرأس في الهواء. تضع المرأة يدها عليه. ماساكي الذي لم يعد يحتمل الانتظار أصدر صوتاً متعمد بقدمه... عندها، وفي ذات اللحظة التي تكاد المرأة أن تلتفت إلى الخلف تجاه ذلك الصوت،

فجأة تحوّل ما هو أمام ماساكي إلى ظلام دامس وجاف.
... عندما نزع تلك اليد التي غطت عينيه بالكامل، ونظر مرّةً أخرى
إلى الأمام، كانت المرأة قد اختفت بالفعل.
وعندما نظر إلى الخلف كان هو الذي يقف في الخلف الراهب
إينيو.

ارتفع صوت ماساكي عاليًا مضطربًا بسبب الغضب الجامح الذي
لم يجد له مصرفًا.
«أيها الراهب المبجل، ما هذا الذي يحدث بحق السماء؟ هل هذه
الشابة الجميلة هي العجوز المصابة بالجذام التي حدثتني عنها؟»
«.....»

«آه... يا لك من راهبٍ ساقط! لم أتوقّع أن تثير فيّ مشاعر الشفقة من
أجل أن تخفي امرأة!... وحتى رغم ذلك، لماذا؟... لماذا؟... لا أفهم،
ولكن من الأفضل لك ان تحافظ على هذا الصمت. فبعد أن عرفت أنها
ليست عجوزًا لن أتوقّف حتى أدخل الكوخ وأتأكّد منها بعيني هاتين!»
عندما كان ماساكي على وشك التحرك أجابه إينيو في هدوء.
«لا تدخل!»

«لا تدخل؟ أتتصحني؟ هل تعتقد أنني يمكن أن أثق في كلماتك بعد
الآن؟ هل من المحتمل أن أصغي إليك؟ لن أصدق أيّ كلمة منك بعد
الآن. لن أصدقك مطلقًا!»

ماساكي الذي بلغ به الانفعال مداه دفع إينيو الذي حاول منعه،
واقترب من باب الكوخ. وعندها:

﴿لا تدخل!﴾

اندفع صوت المرأة ليخترق السكون مثل رمح.

﴿آه.... أرجوك لا تأتِ إلى هنا. أرجوك استمع لما يقوله لك الراهب

المبجل. فالراهب المبجل ليس بالشخص الذي تظنّ. لا يجب أن

ألتقي بك أبداً. فأنا...﴾

قالت المرأة ذلك، ولم تستطع التحمل فتسرّب منها النشيح.

ماساكي الذي نسي حتى نفسه مع عنف مشاعره، احتار مع ذلك

الصدى المرهف الجميل.

﴿لماذا يا ترى؟ هل تقولين إنك لا تعرفيني؟ لا تعرفين من أنا؟...﴾

لا، هذا لا يُعقل! إنني أعرفك، أعرفك منذ زمن بعيد جداً. فأنتِ التي

أراها بشكلٍ مستمرٍ في أحلامي كلّ ليلة، أنتِ التي أهيم بها عشقاً! منذ

يومي الأول هنا وأنا أرجو لقاءك بشدة، منذ ذلك اليوم الذي لدغني

فيه الثعبان وحُملت إلى هنا. لا، ربما قبل ذلك بكثير، ربما ظلمتُ

ألاحقك، ألاحقك أنتِ فقط! ثم الآن بعد أن أصبحتِ حقيقة واقعة،

ولم تعودى وهما، لم تعودى ساكنة الأحلام فقط. لماذا لا يجب عليّ

أن أسعد بهذه المعجزة؟﴾

﴿من فضلك، أرجوك، كفى، توقّف ولا تقل أكثر من ذلك... بالطبع

أنا أعرفك جيداً. ولأنني أعرفك جيداً، فإن معاناة هذا اللقاء ستكون

أكبر وأعظم!... أنا كما المتوقع، لا يجب ولا ينبغي أن أقابلك. أرجوك

استمع لكلام الراهب المبجل وارحل عن هذا الجبل... لو مكثت هنا

أكثر من ذلك، فسأحقد عليك... بالتأكيد، أكثر مما هو حالي الآن...﴾

غابت عن ماساكي الكلمات التي يجب أن يردّها بها وظلّ واقفاً لا

يتحرك. ثم وسورة غضب التفت إلى الخلف ورفع صوته المتألم تجاه
الراهب إينيو الذي ظل واقفاً في صمت.

أيها الراهب المبجل! لماذا؟ أنا لا أفهم شيئاً... آه... أجل لا أفهم
أي شيء... أي شيء!!

ظل إينيو غارقاً في الصمت ولم يحر جواباً.

أيها الراهب المبجل!!

لا يجب عليك أن تجعل تاكاكو تعاني وتتألم أكثر من ذلك...
حسناً، أريدك أن تغادر هذا المكان في الغد. عليك ألا ترفض. هذا
الأمر لست من يقرّره.

ماساكي، بسبب اليأس، لم يجد كلاماً يرذبه اليأس، وسقطت ركبته
منهارتين فلمستا الأرض. إينيو كذلك لم يكن يبدو عليه أن لديه ما يقول
أكثر من ذلك. الليل هادئ تماماً، فقط نشيج المرأة يتردد صداه خافتاً.
الصباح ما زال بعيداً. الماء الذي أنساب على جسد المرأة أمام
الكوخ يلمع عاكساً صورة البدر اللامع.

سقطت نقطة ماء أخرى من حافة حصيرة الخيزران. فاهتز سطح
الماء في سكون.

في صباح اليوم التالي كان الطقس جيداً ومشمساً.
ماساكي بعد أن رحل من جبل أوسن داكه، خرج إلى جسر
هياكوتشو ولم يتجه من هناك إلى طريق كوهيجي، ولكنه بدأ السير
متجهاً إلى الطريق المؤدية إلى نيشيكومانو.

لقد افترق عن إينيو بالفعل بعد أن نزلا سوياً من الجبل. وعندما

افترقا قال ماساكي له كلمة شكر بأدب بالغ متضمنةً اعتذاراً عما حدث في الليلة السابقة. ولكن إينيو ضم كفيه فقط وظل صامتاً.

في منتصف طريقه نحو كوتاني، بعد أن مرَّ على المقابر في سفح الجبل، وعندما كان يحاول ماساكي إحكام عقد رباط الحُفِّ الخلفي، وضع إحدى ركبتيه على الأرض. وفي تلك اللحظة وهو يضع حقييته بجانبه، هجمت فجأة الأوهام السابقة الذكر عليه.

كان ذلك بالنسبة لماساكي أمراً غير متوقع على الإطلاق.

فماساكي كان يسعى، بصعوبة، للنجاة من تلك الحالات العجيبة التي تعترى جسده حتى اليوم، فقط عندما يفكر فيها مرتبطةً بذلك الجبل. وليس فقط الهلاوس بمفردها. حلم المرأة كذلك، والتغيُّر الذي يصعب تصديقه لمناظر الحديقة، كان المفترض أن كل ذلك سببه يعود إلى الجبل. كلُّ تلك الأشياء مرَّت به تماماً بسبب وجوده في ذلك الجبل. لم يكن يوجد بشكل خاص برهانٌ مؤكَّدٌ يجعله يفكر بهذا الشكل. ولكنه فقط، لأنَّه لم يستطع فهم كلِّ تلك العجائب العديدة التي حدثت معاً واحدة بعد أخرى، فكَّر في الاعتماد على دمجها كلها في عجيبة واحدة كبيرة.

على أيِّ حال، ما يُسمى عجيبة، تكون عجيبة بحق عند مقارنتها بالحقيقة. مثلاً، إذا تفتَّحت زهرة مشمش على شجرة كرز، فتلك عجيبة. لأنَّ الحقيقة هي أن أشجار الكرز تفتَّح عليها أزهار الكرز. مثال آخر، إذا عاشت الطيور داخل الأرض وطارت المناجذ في السماء، فتلك أيضاً عجيبة من العجائب. لأنَّ الحقيقة هي أن الطيور تطير في السماء والمناجذ تعيش داخل الأرض. ولكن ماذا لو كانت هناك عجيبة واحدة

كبرى تجعل تلك الحقائق، أشياء لا معنى لها من الأصل؟ وقتها، على الأرجح سيعتقد الإنسان أن تلك العجائب الفردية، ليست عجائب في حد ذاتها. والسبب، أن الحقائق التي يمكن مقارنتها بتلك العجائب الفردية غير موجودة ولا يمكن القياس عليها.

أصاب ماساكي الملل من الشك في العديد من العجائب التي مرّت عليه كلّ واحدة على حدة. ولذلك، حاول نسبها جميعاً إلى ذلك الجبل. فعلى الأرجح هو لن يستطيع بحث كلّ عجيبة على حدة ودراستها ليصل في النهاية إلى تفسير يؤكدها ويعترف بها كلّها. ولكن مع هذا، وما دامت قد حدثت بالفعل على أرض الواقع، فليس لديه سبب مقنّع لنفيها. ولهذا السبب بالذات فكّر أن يجعل تفسيرها جميعاً هو ذلك الجبل. في الأصل، لو استطاع الجبل أن ينفي حقيقة وجود الظواهر الفردية، ثم حتى لو حدثت تلك الظاهرة، ففي النهاية يمكن اعتبار أنها ليست من العجائب. و عوضاً عن الإيمان بعدد كبير من العجائب، سيكفي فقط الإيمان بعجيبة واحدة. وهذا لا يحتاج إلا إلى جهد ضئيل. تختار أحد الخيارين، إما أن تؤمن أو لا تؤمن. وقد اختار ماساكي أن يؤمن.

ولكن إحدى تلك العجائب التي من المفترض أنها تنتمي إلى العجيبة الكبرى، تدرجت الآن من هناك لتلاحق ماساكي الذي يسير في طريقه. وكان ذلك يعني بالنسبة له أن كلّ العجائب قد تحرّرت من لعنة الجبل.

أصاب ماساكي خوفٌ شديدٌ. فمنذ ذلك الوقت وآلام القدم تعاوده، حتى بعد عودته إلى الواقع.

حسنًا، كان سبب إحجام ماساكي عن فكرة الاستمرار في السفر، والبقاء في كوتاني هو آلام القدم تلك، وأيضاً، بسبب الصداع الذي بدأت بوادره تلوح مرّةً أخرى. عندما وصل إلى كوتاني أصيب ماساكي على الفور بحُمّى مفاجئة، ووقد كما هو بحالته تلك في فراش النُّزل. كانت الحمّى خفيفة وضعيفة. ولكن، حتى بعد مرور عدة أيام، كانت حرارته مرتفعة لا يبدو أنها ستخفّض مطلقاً، بل على العكس كانت حالته الصحية تزداد سوءاً.

جسده لم يعد يتقبّل أيّ طعام تقريباً. مع مرور الأيام بدأ جسده يذبل ويضعف، وفجأة بدأت تظهر دمّاء ممزوجة بقيحٍ على قدمه التي كان من المفترض أنها شفيت من المرض.

أخيراً، مالكة النُّزل وبعد أن راقبت حالته لثلاثة أيام تقريباً، أمرت عاملة لديها باستدعاء طبيب. يوجد في تلك القرية طيبان منذ عدة سنوات. ولكن الطبيين اللذين تم استدعائهما لم يتمكنوا من تشخيص المرض الذي أصاب ماساكي. كلاهما أنهى الكشف الطبي من دون توضيح اسم المرض، وجعل الأمر مبهمًا، ورغم ذلك، في النهاية، وبنبرة من يحرص على عدم فتور همته أضافا:

«الأمر ليس خطيرًا، ولكن يجب أن تظللّ هنا لبعض الوقت تراح بهدوء.»

كانت الغرفة التي أعطيت لماساكي تقع في الركن الغربي الجنوبي بالطابق الثاني. تقريبًا لا يوجد نزل في هذا النزل، جميع العاملات وكأنهن لا يجدن ما يعملن، فكن يقمن بتمريره بنشاط وحيوية طوال اليوم.

في الليلة الأولى التي قضاها هنا، عرف ماساكي أنّ حلم المرأة، مثله مثل الهلاوس الأخرى، قد هبط معه من الجبل. ولكن المنظر كان مختلفًا عن السابق، كان بعيدًا ضبابيًا، بل ويزداد ضبابية يومًا بعد يوم. وبصفة خاصة، في الليلة التي أمره الطبيب أن يتناول فيها دواءً منومًا كعلاج للأرق، حجب عنه حلم المرأة النوم العميق كما لو كان ضبابًا كثيفًا.

ظلّ ماساكي يلاحق ذلك الجسد الجميل المثير الذي يفترقه تدريجيًا ناسيًا، وهو يلاحقه، ذاته نفسها.

ومن جهة أخرى، أصبحت الهلاوس المرئية التي ارتبطت بالجبل، تظهر له عند وسادته أكثر من ذي قبل، وكانت تمتد أيضًا لفترات طويلة، وتسلب زمن الواقع الذي غادره النوم شيئًا فشيئًا.

عندما يستيقظ من نعاسه في الفجر، كثيرًا ما يتأمل ماساكي قمر الليل المتبقي في الصباح وهو ما يزال يحتضن بقية الحلم الذي رآه منذ قليل، ويعاود التفكير في الأيام التي قضاها في الجبل.

كان ذلك وكأنّه حلم واحد طويل. في وقت الغروب بذلك المعبد، عندما يشبّه نفسه بلا معنى بطفل لأسطورة أوراشيما، يعتقد أنّه لا يجب أن يكون موجوداً في مكان آخر سوى ذلك الجبل. ولكن الآن وبعد أن هبط من الجبل بهذا الشكل ها هو يعيش داخل الزمن الطبيعي مرّةً أخرى مثلما كان في الماضي. لا بل على الأقل هو يعيش وسط عدد كبير من الناس الذين يعيشون الزمن الطبيعي. وكان يعتبر ذلك الأمر بشكل ما عجيبة من العجائب.

... يقال حلمًا، ويقال واقعًا، ولكنني في النهاية أشعر أنّ كلاهما

وكانهما الأوهام نفسهما. في تلك الليلة، رأيتُ تلك المرأة بالتأكيد في عالم الحقيقة وليس الحلم. رأيتها بعينيَّ هاتين اللتين من لحم ودماء. ولكن عند إعادة التفكير ألا يمكن، كما هو متوقع، أن يكون ذلك أيضًا وهمًا غير حقيقيا؟

لقد كانت المرأة جميلة فعلاً إلى درجة تطابق شكلها في الهلاوس. كان ذلك نوعاً من الجمال الذي لا يمكن أن يكون موجوداً في هذا العالم. ولكن ربما كان الجسد الذي رأيته أنا، أثناء النشوة هو الجسد العاري للعجوز المجذومة كما قال الراهب المبجل.

أنا لا يمكن أن أنسى فضل الراهب عليّ. كلما أصبحت هادئاً كانت هيئته تلك تزداد رفعةً ونقاءً وتبتعد بعيداً في عمق الجبل العميق. كان يلفني حينئذ طاغٍ تجاه ذلك. لقد اندفعت مع فورة الغضب ونعته بالراهب الساقط، ولكني الآن نادم على ذلك.

وإنما لا يمكن لي أن أصدق، مهما كان، أن الشخص نفسه يكذب تلك الكذبة ويخفي امرأة شابة جميلة. حقاً كلما فكرت في الأمر أحتار، فحتى الراهب العظيم إيكيو زنجي الذي قيل عنه إنه «بوذا حي»، له أبيات شعر ماجنة تتغنى بامرأة الغابة. إذا كان الأمر كذلك فربما يعني أن ما قمتُ به من جلبة وضوضاء لمجرد وجود امرأة، هو في النهاية بسبب جهلي بالاستنارة الحقيقية.

ولكن رغم ذلك لا يقنعني الأمر.

لقد قال إن اسمها تاكاكو. منظر تلك المرأة المسماة تاكاكو، ذلك المنظر الذي عرفته في أحلامي، هل يمكن أن ينعكس ذلك المنظر في عيني الراهب المبجل ويتحوّل إلى صورة امرأة عجوز بشكل مؤكد؟... رغم السبب

والتقريع مني، حتى النهاية لم يدافع الراهب عن نفسه بقول الكذب. ربما ظنَّ الراهب المبجل أنني شخص مجنون. أنا الذي أتأمل عجوزًا بائسة فتثور فيّ مشاعر الشبق. لو كان الأمر كذلك، فهل صمت الراهب المبجل تجاهي سببه الشفقة؟... آه ولكن. أجل ليكن ما هو كائن؛ أن تكون تلك المرأة شابة وجميلة، أو تكون عجوزًا مجذومة، ما هو يا ترى حجم الاختلاف بينهما؟ ولو كان كلُّ ذلك في الأصل مجردَّ أو هامًا، فيكفيني أن أصدق أنا الوهم الذي رأيته. ولا يبقى إلاّ وتصديق تلك الكلمات التي قالها ذلك الصوت الجميل، تصديق قولها نعم أنا أعرفك... ۞

في الجو الحار الذي يسبق فصل المطر، ازداد مزاج ماساكي السيئ سوءًا. وابتل جيب قميصه بالعرق على الدوام، ومهما كرَّر تغيير المنشفة المبتلة من على جبهته، تغرق على الفور في بيئة ساخنة دافئة وكأنها حيوانٌ صغيرٌ يصارع الموت بلا حولٍ ولا قوة. لا يأكل سوى مجرد شيء يشبه حساء الأرز الممزوج بالقمح مثل المرققة البيضاء، بل هو يتقيأ أغلبه بعد ذلك، مما يجعل عظام قفصه الصدري تضربها موجات عنيفة من الاضطراب.

الأحلام والأوهام كثيرًا ما تجتاح الواقع، ومؤخرًا، أصبحت ساعات اليوم التي يكون فيها بوعيه الواضح هي الأقصر. هجمت الأوهام والهلاوس على ماساكي مراتٍ عديدة حتى أمام عاملات النزل. أثناء إحدى تلك الهجمات تصادف وأنه كان كمن أصيب بنوبة صرع، فصرخت عاملة النُّزل المرتبكة التي كانت ترى ذلك لأول مرة، منادية على مالكة النزل، وجمعت النزلاء وتحول الأمر إلى ضجة كبيرة. ۞ حتى الآن، أنا لازلتُ أخاف من ذلك الأمر وأستدعي مالكة النُّزل.

حقًا، فأنت تكون وكأنك على وشك الموت بالفعل. ولكن العاملات الأخريات يقلن إنهن قد اعتدن على ذلك. ۞

عندما تحدثت معه عاملة النُّزْل الشابة بهذا الشكل لم يجد ماساكي إلا أن يضحك بلا حول ولا قوة. والسبب أنه ظلَّ يفكر أن من الأفضل أن يتعجَّب الناس منه لظنِّهم أنَّ به صرْعٌ، على أن يشعروا بالتقرُّز منه بسبب معاناته وتقلُّب جسده أثناء مواجهة أوهام غريبة وغير طبيعية. ولكن بعد أن أضافت عاملة النُّزْل ما يلي.

أولكن رغم ذلك فتكرار الأمر في وقت قصير يجعلني بالتأكيد في غاية القلق... علاوة على ذلك، الجميع في حالة قلق شديد على حالة قدمك. إيفان ماساكي لم يستطيع مواصلة الضحك.

والحقيقة أنَّ جرح الساق كان قد تقيَّح، وأصبح ماساكي لا يستطيع مجرد السير من دون الاعتماد على عكَّازة.

لم تكن عاملات النُّزْل فقط هن من يمرِّضن ماساكي. بل المالكة كذلك كانت تأتي لزيارته في غرفته مراتٍ عديدة، وتسأله عن حالته، وتمسح عرق جبهته بنفسها، وتحمل الملعقة بيدها إلى فمه. تلك المرأة الناضجة التي تنم أرنبه أنفها النحيفة ذات الطراز القديم، ومقلة عينها الكبيرة بشكل لافت والغارقة في قاع محجرها، عن شدة جمالها في شبابها، عندما تلمس جسد ماساكي المكشوف عند الجَيْب، فجأة تشعر وكأنها تلمس شبابها الذي مضى. تحوَّل ذلك الآن إلى ما يشبه الفرحة السريّة. ويكمن سبب بقاء ماساكي في النُّزْل من دون تذرُّم من أحد رغم مرضه الطويل هذا، في تلك الفرحة التي تحسُّها مالكة النُّزْل، بالإضافة طبعا إلى شعور التعاطف معه.

حسنًا، كان ذلك في إحدى الليالي بعد مرور حوالي أسبوعين على

مجيئه إلى النزل.

في فجر ذلك اليوم، حتى قبل أن يستيقظ ماساكي تمامًا، غرق في تلك الهلاوس المعتادة، ولم يعد إلى الواقع مطلقًا حتى حلول العصر ذلك اليوم. وحتى لو قلنا إنَّه اعتاد على تلك النوبة، إلا أنها كانت المرَّة الأولى التي يفقد فيها الوعي لهذه المدة الطويلة، مما جعل حتى مالكة النزل نفسها تقلق، فجمعت العاملات، ودعت طبيب القرية، وحدثت ضجة هائلة لفترة من الوقت داخل النزل كما حدث من قبل.

الطبيب الذي جاء على عجل، كان يحرك عنقه أكثر من مرَّة متعجبًا أثناء الكشف عليه. ثم تأكَّد من النبض مرَّةً أخرى، وبعدها نظر إلى الخلف تجاه مالكة النزل مندهشًا. في ذات اللحظة انفتحت فجأة جفون ماساكي على آخرها وكأنها فقاعة صابون انفجرت فجأة. فرفعت عاملة صوتها قائلة آ... آ... آ.

- آه، خيرًا... خيرًا، لقد أفاق... لقد أفاق. آ

تسرَّبت أصوات الارتياح والاطمئنان من أفواه جميع المحيطين بالفراش. وماساكي ذاته كذلك استجاب لهم تقريبًا من دون أن يعرف أيَّ شيءٍ وقابلهم بابتسامة. ولكن فقط الطبيب الذي كان لا يزال قابضًا على رسغته، عقد حاجبيه في ارتياب، وابتلع الكلمات التي كان على وشك التفوّه بها لتوه بحرصٍ وحذرٍ وأخفاها في قاع معدته.

حتى بعد أن غادر الطبيب المكان، ظلَّ وعي ماساكي يعود إلى الواقع حينًا، ويغرق في قاع الهلاوس والأوهام أغلب الأحيان. ثم ها هو الآن أخيرًا، قد أصبح وعيه مؤكدًا إلى حدِّ ما، نظر من نافذة النزل شاردًا إلى مكان خارج النزل.

حتى اليوم، كان يحصي ليالي القمر كلَّ ليلة، الليلة الثامنة عشر،

التاسعة عشر، العشرين، كان ذلك الظلُّ قد اختفى بالفعل هذه الليلة. وامرأة الحلم كذلك، أخيراً أصبحت بعيدة وضئيلة، مثل ذكريات الطفولة، لا تتذكَّر منها سوى القليل.

حتى في داخل الهلاوس كان ماساكي يفقد وعيه عدة مرات، وفي كلِّ مرَّة كان يلمح جزءاً من جسد المرأة. وعندما عاد إليه وعيه، وجد نفسه راقداً وحيداً في وسط الجبل. ثم بعد ذلك عاد وعيه بدرجة أكبر، عندها وجد نفسه مستلقياً على وجهه في فراش النزل.

في كلِّ مرَّة يعود إلى الواقع، يندهش ماساكي بشدة من سرعة مرور الزمن. رغم أنَّ الوقت الذي يقضيه في الجبل لا يزيد عن بضعة دقائق بحدِّ أقصى، ولكنه عندما ينتبه، يجد أنَّ عشرات الدقائق والساعات قد مرَّت. حالياً الوقت الذي يقضيه في الحلم، والوقت الذي يقضيه في الجبل، والوقت الذي يقضيه في الواقع، متشابكين مثل الخيوط المُعقَّدة معاً، وتقريباً لا يستطيع فصلهم عن بعضهم البعض.

«حتى الوقت الذي أكون فيه غارقاً في التفكير بهذا الشكل، هل يمكن أن يحدث أن أنتبه فجأة، لأجد نفسي في مكانٍ مختلفٍ تمام الاختلاف؟ وسط الجبل؟ أو أمام كوخ المرأة؟ أو ربما في مكانٍ بعيد لم أزره من قبل؟...»

أثناء تفكيره هذا، عندما تغصَّنت ملامح وجهه للحظة بسبب آلام ساقه الحارة، فُتح باب الغرفة بهدوء.

«آه... معذرة... كان يجب أن أستأذن في الدخول. كنت أظن أنك

نائم بالفعل. وكنت أريد أن أُلقي نظرة عليك من دون إيقاظك.»

«لا عليك. لا مانع لدي.»

أظهر ماساكي القليل من بشاشة الوجه تجاه كلمات مالكة النزل.

«هل تمنع في دخولي؟»

«لا، بالطبع لا أمانع.»

«فعلاً؟ لقد قلقتنا جداً عليك في فترة النهار... ولكن الطبيب قال إنّه

يجب عليك الراحة والاسترخاء.»

«لقد تسببت في إزعاجكم كثيراً.»

«لا... مطلقاً، لم يكن قصدي قول ذلك ما فهمته. ابق هنا كما تريد

من دون أن تشغل بالك بنا. فلقد حصلنا منك على الثمن الذي دفعته لنا

مقدماً من أجل ذلك.»

قالت مالكة النزل ذلك، ثم أبدت ابتسامة مطمئنة.

أخفض ماساكي رأسه قليلاً. وقال وهو ينظر إلى الخارج مرّة أخرى:

«... آه... لكن يبدو أنني قد أصابني الإرهاق كثيراً. لأنني ظللت

مستلقياً على الدوام.»

«لا مانع من ذلك. ارقد كما تشاء. الجو اليوم أكثر اعتدالاً من

المعتاد، وهو مناسب جداً كي تستريح فيه.»

مرّة أخرى رقد ماساكي على الفراش بمساعدة مالكة النزل.

وضعت مالكة النزل على جبهته منشفة كانت أخذتها من إناء الماء

وعصرتها لتوها. تضافرت تلك البرودة مع هواء الليل الرطب الذي

يهبّ من وقت لآخر، وأعطيا لماساكي راحة ولو بقدر بسيط للغاية.

صدر صوت خافت جداً من بين شفاه مالكة النزل.

«... سيد إيهارا!!»

فتح ماساكي جفونه.

هل تمنع لو سألت عن أشياء قليلة؟

الشمعة التي كانت قبل قليل بين يديها أصبحت الآن تتألق على حافة وسادته، وتير قليلاً وجه مالكة النزل البعيدة عنها. أخذ قلب ماساكي بمساحيق وجهها البسيطة التي لا تختلف عن المعتاد.

ما هي تلك الأسئلة يا ترى؟

لقد سمعت أنك يا سيد إيهارا قد صعدت إلى قمة جبل أوسن

داكه قبل مجيئك إلى هنا...

أجل، وماذا في ذلك؟

لا شيء مطلقاً، ليس بالأمر الهام... ولكن ألم تلاحظ شيئاً غريباً

في طريقك؟

... لا، لم يكن هناك ما يسترعي الانتباه.

لقد دُهِش ماساكي قليلاً وكأنه أخذ على حين غرة، فأجاب، متعمداً،

بهذا الرد الحذر. ماساكي لم ينبس ببنت شفة لأي إنسان بما حدث له

حتى الآن من حوادث غريبة.

... حقاً؟

قالت مالكة النزل ذلك، ثم ابتسمت وهي تمسح بيدها على قصة

شعرها الدائرية التي انهار شكلها كأنها تقريبا تستنكر سؤالها بنفسها.

أثار ذلك اهتمام ماساكي.

هل يوجد شيء بعينه يثير انتباهك؟

... لا، ولكنه أمر لا أهمية له حقاً. هل قلت إنك من طوكيو يا

سيد إيهارا؟ لو سمعت هذه الحكاية لربما تسخر متعجباً من خرافات

الريفيين...

﴿خرافات؟﴾

﴿... نعم. ألا يقال عنها كذلك؟﴾

﴿لو تفضلت... هل لك أن تُسمعيني بعضاً تلك الحكايات؟﴾

بعد أن ابتسمت مالكة النُّزُل مرّةً أخرى، أظهرت بعضاً من شعور الحيرة والتردد، أخذت المنشفة من على جبهة ماساكي، غطّستها في الماء البارد، رغم أنها لم تكن قد سخنت بعد إلى هذه الدرجة، داخل الإناء الرطب المصنوع من خشب السرو المنعش، كان القماش الأبيض يتحرّك ويهتز في الماء وكأنه سمك ﴿الأيو﴾.

﴿... حقاً كيف لي أن أبدأ.﴾

بعد أن عصرت المنشفة بقوة وطوتها بعناية إلى عدة طبقات، وضعتها مرّة ثانية على جبهة ماساكي. من خلال المنشفة أحسّ ماساكي براحة يد مالكة النُّزُل تضغط على جبهته برفق. قطرات الماء التي بقيت على الحواف، انسابت قليلاً مارة بأرنبه أنفه ثم مالت إلى اليمين فسالت على محجر العين.

ماساكي وقبل أن تزيل مالكة النُّزُل يدها من على جبهته، تعمّد أن يقول هذه المرّة بنبرة فيها شيء من الحميمية:

﴿أنا، ولأنني أرقد على الفراش طوال النهار، لا أستطيع النوم في الليل بسهولة.﴾

جعلت مالكة النُّزُل تلك حجة لكي ترفع يدها عن جبهته، ثم قالت:

﴿... حسناً، مادمت يا سيد إيهارا تقول إنك لن تنام... ستكون حكاية

طويلة، ولكن تفضل بالاستماع وأنت مسترخٍ ومغمض العينين.﴾

ثم ظهرت من طرف الكيمونو قدم بيضاء عدلت من وضعها.

لهذه الحكاية مرَّ عليها خمسة وعشرون عامًا تقريبًا. لقد كنتُ في حوالي الخامسة أو السادسة عشر من العمر، أعتقد أنني كنتُ في تلك السنِّ تقريبًا. في تلك الفترة كانت حملة القضاء على البوذية وتدمير معابدها في أوجها، وتُنَفَّذ على قدم وساق. هذه القرية أيضًا، انتشر فيها جوُّ كئيِّبٍ مظلم. وقتها، وفي منتصف الطريق المؤدية من بلدة كوتاني إلى أوبارا، كان هناك نُزُلٌ صغير. أنا أيضًا أتذكُّره جيدًا. كانت هناك فقط مالكةٌ وعدد صغير من العاملات، وكان الزوج يعمل في ناحية مدينة شينغو. لم يكن يوجد في هذه المنطقة نُزُل، إلا نزلنا وذلك النُزُل فقط، ولذا كانت بيننا علاقة جيِّدة، وأنا مثلًا كنت في طفولتي كثيرًا ما أذهب هناك للعب، وكانت مالكة النُزُل تطعمني من حلوى عججين الأرز.

كان يوجد في ذلك النُزُل فتاة تكبرني بثماني سنوات، وكان اسمها أوتاكي. وكنت دائمًا أنادي أوتاكي هذه، أختي الكبرى... أختي الكبرى، وكانت ذات جمال أخَّاذ، إلى درجة أنَّ الناس في القرى المجاورة كانوا يقولون مازحين إنَّ الزبائن يجيئون للمبيت في هذا النُزُل من أجل أوتاكي... أجل، بالطبع لم يكن ذلك مزاحًا فقط، بل بالفعل يبدو أنَّ العديد من الزبائن كان يفعل ذلك. وأنا منذ أن وعيت على الدنيا، كنت أذهب كثيرًا للعب معها، وكانت تراعيني كما لو أنها أختي الكبرى حقًا، في العادة، عندما تتعوَّد على شخص تتعوَّد على جمال وجهه فلا تلتفت إليه، ولكن رغم ذلك كنت كلِّما ألقاها أفاجأ بذلك الوجه الرائع الجمال. بالطبع لم يكن الوجه فقط رائعًا. أيُّ جزءٍ فيها كان جميلًا حقًا وكأنها أميرة من أميرات البلاط. وفوق ذلك كانت

هادئة، طيبة القلب، ولم يسبق لي أن أحسست بالكراهية ولو لمرة
واحدة تجاه أختي الكبرى تلك، آه أفصد أوتاكي...

... ولكن، عندما أتذكر الآن، فبمقدار ما كانت أوتاكي جميلة،
كانت وكأنها يائسة وحزينة بشكل ما، وإنما ذلك لم يكن مثلاً لأنها
دائمة المرض أو أي شيء من هذا القبيل... ولكن... ماذا يمكنني أن
أقول... فأنا لم أكن أدرك تمامًا ما يحدث، فقط، كان ذلك إحساسًا
مًا، ليس إحساسي أنا فقط، فالجميع كان لديهم الإحساس نفسه، وكان
بعض الناس يعلنون ذلك في الظلّ مستخدمين كلمات مليئة بالشرّ مثل
«إنها شوّم»، أو «مثيرة للغثيان».

حتى هذه اللحظة لا أفهم لماذا كان الجميع يعتقدون ذلك. في
العادة وباستثناء جمالها الأخاذ، لم يكن بها أي شيء غير طبيعي...
ولكن، لا أعرف، ربما كان ذلك بسبب بشرة أوتاكي شديدة البياض.
على كل حال كانت هذه هي صفات الفتاة التي تُسمى أوتاكي.
وعندما أتذكر هذا الأمر وأفكر فيه، كانت تلك الصفات واحدة واحدة
تنبئ بمصيرها المؤسف في النهاية، وأنا أتكلّم بهذه الطريقة، أحسّ
بشكل ما بعدم القدرة على التحمّل.

أغلقت مالكة النزل فمها متأسية.

كان ماساكي يستمع لها صامتًا. كان حديثها بلكنة إقليم العاصمة
طوكيو التي تتميز بها توتسوكاوا الغربية عن هذه المنطقة، وكان
الصدى غير المعتاد على سماعه يسهل التألف معه. والكلمات كذلك
كانت راقية، تختلف عن كلمات باقي النساء اللاتي يضمن اللازمة «حقًا»
في آخر الجملة في لهجة هذه القرية، وربما كانت صاحبة النزل تفعل

ذلك مراعاة لماساكي .

كان لهب الشموع يهتز داخل الغرفة بهدوء .

لا صوت لأقدام العاملات في الطابق السفلي ...

أتلك الفتاة أوتاكي، نعم... بالضبط عندما تخطت العشرين من العمر، في أحد الأيام، اختفت تمامًا بعد خروجها من البيت. على أي حال في ذلك اليوم كانت قد ذهبت إلى الجبل لاقتطاف زهورٍ تضعها في غرف النزلاء، ولكنها لم تعد إلى النزل حتى بعد حلول الظلام. وبالطبع، الأهل والجيران وحتى النزلاء، الجميع أصبح قلقًا لغيابها، وذهبوا للبحث عنها في كل مكانٍ رافعين أعواد المشاعل.

وبالطبع أنا أيضًا ذهبت معهم. كانت ليلة مظلمة تمامًا بلا قمر... الحقيقة أنني وقتها كنت قد كبرت قليلًا، ورغم قولي ذلك فقد كنت كما ذكرت منذ قليل لم أبلغ بعد الخامسة أو السادسة عشر من العمر، وكانت عادة الذهاب كل يوم إلى بيت أوتاكي واللعب معها كما في الماضي قد انتهت، وكنا، تقريبًا، قد أصبحنا مبتعدين عن بعضنا البعض، ورغم ذلك فعندما سمعت الخبر، لم أستطع الاحتمال، وأتذكر أنني رافقت الكبار وذهبت للبحث عنها وأنا أبكي.]]

... في ذلك الوقت فتحت إحدى العاملات باب الغرفة فجأة.

]]آه... سيدتي هل أنت هنا؟]]

]]ماذا حدث؟ لماذا سكت فجأة؟]]

]]لا شيء... ولكن اليوم هو دوري في المناوبة.]]

منذ أن ساءت حالة ماساكي الصحية وكل ليلة تقوم إحدى العاملات بالمجيء بهذا الشكل لتفقد حالته. مالكة النزل أحست نوعًا ما، أن

شخصًا قد تلصَّص على حياتها الخاصة، فتعكَّر مزاجها قليلًا.

«لا عليكِ، اذهبي واستريحي.»

«... فهمتُ. المعذرة.»

بعد أن رحلت العاملة أَحَسَّت مالكة النُّزُل ببعض الحرج، فقالت:

«لأنني كما ترى لا أَحْسِنُ تعليم العاملات، فالجميع هنا بلا تربية

ولا أدب.»

ثم قال ماساكي وكأنَّه يراعي مشاعرها:

«هل يأتي أحد دائمًا لتفقد حالي؟»

«أجل... ولا مانع لديَّ من ذلك.»

بعد أن قالا ذلك سكت الاثنان لفترة.

بعد مرور وقت قصير تحدَّثت مالكة النُّزُل مرَّةً أخرى.

«... إلى أين كنت وصلت يا تُرى؟... نعم... نعم، في النهاية لم يتم

العثور على أوتاكي في تلك الليلة.

في اليوم التالي، ظللنا نبحث، وقد اجتمع عددٌ أكبر من اليوم

السابق، ولكن لم نعثر لها على أثر. بهذا الشكل بدأنا تدريجيًا نسمع

شائعاتٍ بغیضة. إنَّ إله الجبل قد اختطفها، أو أنها ماتت بالفعل في

مكان ما... وأعتقد أنَّ أمَّها كانت تعاني بشدَّة كلِّما سمعت شائعةً بهذا

الشكل.

ولكن في صباح اليوم الرابع من البحث... آه، نعم هو كذلك، مرَّة

عدُّ من الليالي بلا قمرٍ، وأخيرًا في صباح الليلة التي ظهر فيه الهلال،

بعدها مرَّت ثلاث ليالٍ منذ اختفائها، عادت فجأةً لمنزلها. عادت من

ذلك الجبل الذي تقول أنت يا سيد إيهارا أنك تسلقته.»

أهل تقصدين جبل أو سن داكه؟

أجل، هو كذلك... أمها ومرافقيها الذين خرجوا فجرًا للبحث

عنها، وجدوها فجأة... وفي البداية كانت فرحتهم عارمة...

وبعدها؟...

آه... ولكن، بعدها... يبدو أن بقاءها بمفردها وسط الجبل، أصابها

بالرعب والهلع، فأصيبت نفسيته بشيء غريب نوعًا ما... أجل، على

أي حال لم تعد أوتاكي شخصًا طبيعيًا منذ ذلك اليوم.

لقد رأيت أوتاكي بنظرة خاطفة عندما عادت إلى النزل محاطة

بالناس. كان وجهها قد شُحِبَ ونحف، وفي النهاية، كان قد ازداد

شحوبًا عن ذي قبل، وبدت هائمة يائسة كما لو كانت شبحًا أو حلمًا.

إنني حتى الآن أتذكر بوضوح منظر أوتاكي الذي برز وقتها في أشعة

شمس الصباح. لا يمكن التعبير بالكلمات عنه. كانت على ما يبدو في

غاية الإجهاد والتعب، ورغم ذلك كانت كما المتوقع في غاية الجمال.

ولكن الذي يجعلني لا يمكن أن أنسى منظرها وقتها، هو أنها كانت آخر

مرة أرى فيها أوتاكي. لم أرها بعد ذلك ولو لمرة واحدة. وقتها التفتت

أوتاكي نحوي، وقالت: يا ياتشان، ثعبانٌ كبيرٌ... ثم ابتسمت. لأنَّ

اسمي ياسوكو فقد كانت أوتاكي تناديني دائمًا هكذا... الأمر الغريب

هو ذلك الشقُّ الخاص بالثعبان. أنا بشكل ما ارتعبت وأجبتها بقولي:

ماذا؟ عين أوتاكي وقتها كانت حمراء ومغروقة بالدموع، وكأنها على

وشك البكاء في التوُّ والحال، ورغم ذلك كانت وكأنها تبتسم، كانت

متألقة في جمالٍ وحزنٍ وأسىٍّ إلى درجة لا يمكن وصفها.

عندما سمعت أمها كلمة ثعبان، أسرعت بالمجيء وشققت صفوف

المتحلِّقين حولها واصطحبت أوتاكي في عجلة إلى داخل المنزل.]]
... صممت مالكة النُّزْل لبرهةٍ وأخذت قطعة القماش البيضاء من
على جبهة ماساكي ببطءٍ شديد.
]]سأبرِّدها لك ثانية]] قالت.

سمع ماساكي صوت عصر المنشفة بين يديها. وتوقَّف فجأة صوت
الضفادع التي ظلَّت تنعق بحيوية خارج النافذة، وكأنها اندهشت من
ذلك الصوت الخافت الضئيل. من بعيد، كانت طيور الوقواق مستمرة
في الصباح. نفضت مالكة النُّزْل أطراف أصابعها على نحو خفيف من
أجل أن تسقط عنها قطرات الماء المتبقية داخل الإناء.
بعد أن أعادت مالكة النُّزْل المنشفة لموضعها سألته:
]]هل تفضِّل النوم؟]]

]]لا.... أكملني باقي الحكاية.]]

رفع ماساكي نظره إلى وجه مالكة النزل. كانت بوادر الحزن والكآبة
قد أطلَّت على هاتين العينين. بعد لحظة وبعد أن أوامت قليلاً بميل،
بدأت مالكة النُّزْل تتحدَّث ببطء.

]]... بعد ذلك، لم أجد الفرصة لمقابلة أوتاكي، لأنَّ أبويَّ حرَّما عليَّ
زيارتها في مرضها، ولأنَّ أوتاكي، من الجهة الأخرى، مُنعت منعاً تاماً
من مغادرة البيت. وعرفت بعد ذلك أنها منذ يوم عودتها من الجبل
وأوتاكي تؤمن أنها حملت طفلاً من الثعبان. منذ أن عُثر عليها وهي
تردد ذلك مرَّة بعد مرَّة... وربما أن ما كانت تحاول أن تخبرني بقولها
]]ثعبان كبير]]، أعتقد على الأغلب أنها كانت تقصد هذا الأمر.

إذا كان الأمر كذلك، فلو قلنا إنَّ سبب حبسها في داخل المنزل

وحرمانها من الخروج، هو إحساس أهلها بالشفقة عليها، لكان ذلك غير صحيح. وربما ساعدت تلك المشاعر في حدوث ذلك، ولكن كان هناك سببٌ أكثر أهمية من ذلك... وهو أمرٌ في غاية الغرابة... فبعد مرور فترة من الوقت بدأت بطن أوتاكي تنتفخ بالفعل.

بعد أن علم أبوها، الذي كان يعمل في مدينة شينغو، بالنبا، عاد على عجل. بالطبع لا الأب ولا الأم صدقاً أنه ابن الثعبان. ولكن عندما تحمل أوتاكي طفلاً بالفعل، فيبدو أن الأمر الذي يكون فيه الكثير من المنطقية بشكل ما... اختطفها أحد الأشرار، بالتأكيد، ثم اغتصبها في مكان ما، وقالوا إنه ما دام هناك طفلٌ، فبالتأكيد له أبٌ، لذلك ظلّوا يحاصرون أوتاكي بالأسئلة عنه. ولكن مهما كرّروا السؤال كان الردُّ الذي لا يتغير وهو أن ثعباناً كبيراً قد أحاط بها... هكذا كان جواب أوتاكي الذي ظلّت تكرره.

وبهذا أصبح الأب نفسه في النهاية غريب الأطوار، بسبب حزنه على ابنته وحقده على الرجل الذي فعل بها ذلك، فترك عمله تماماً واعتكف مع أوتاكي داخل النزل...

على كلِّ حال، الجميع جعل أمر حمل أوتاكي سرّاً، ولكن عاملةً شابةً في النزل أفشت الأمر هنا وهناك، وبذلك دار الخبر على ألسنة العديد من الناس في هذه القرية. ولو لم يحدث ذلك، فإن الأمر كان سيُعرف إن أجلاً أو عاجلاً، فعلاوة على أن أوتاكي كانت شهيرةً بجمالها الأخاذ، كان الأب أيضاً قد ظلَّ لفترة من الزمن يصيح في أيِّ رجلٍ يمرُّ فقط من أمام النزل بغضب شديد، قائلاً له هل أنت الذي اختطفت ابنتي وذهبت بها إلى الجبل؟!]

... بعد مرور الوقت، في النهاية اكتملت شهور الحمل، وولدت أوتاكي بعد استدعاء قابلة لتوليدها داخل المنزل. وسمعتُ أنها كانت بنتًا في غاية الجمال تشبه أوتاكي كثيرًا. حتى تلك الفترة كانت أوتاكي كما هو متوقَّع ما زالت مريضة بعقلها، ولكن على ما يبدو الطفلة الوليدة لم يكن بها شيء من ذلك. كان حقد والدي أوتاكي على والد الطفلة شديدًا ولا حدَّ له، ولكن عندما يريان تلك الابتسامة الطفولية البريئة، فيبدو كانا يتأثران بشدة... وفي النهاية قرَّر الاثنان أن يقوموا بتربية الطفلة مع مواصلة إدارتهما للنزل.

هل ما زال ذلك النُّزُل موجودًا إلى الآن؟

سيطر فضول شديد على ماساكي جعله يسأل مالكة النُّزُل ذلك السؤال بعفوية.

لم يزاوله أيُّ شعورٍ بالنعاس مطلقًا. الهلاوس التي استمرت في النهار إلى درجةٍ كبيرة، ها هي الآن تُخفي ظلَّها وكأنها تنتظر لكي تنتهي تلك الحكاية.

ينساب الواقع بهدوء وتأنٍ.

لا، هو الآن غير موجود.

غير موجود؟

لقد أصبح مصير تلك العائلة مأسويًا...

بعد ولادة الطفلة استمر الحال لفترة من دون حدوث تغيير. ولكن في أحد الأيام نظرت أوتاكي إلى الطفلة التي فتحت عيونها أخيرًا

وفجأة ارتفع صراخها واضطربت اضطرابًا شديدًا.

ولم تمل من تكرار تلك الكلمة التي جاءت على لسانها وقتها، إذ عندما رأت أوتاكي عين الرضيعة، مرّةً أخرى ظلت تكرر صرخةً أنّ الثعبان اغتصبها، وأنّ الطفلة ابنة الثعبان وغير ذلك من أقوال، وتصرخ
«أنا خائفة... أنا خائفة» وهي تبكي.

كما علمت وقتها هدأت أمها بشكل ما من روعها...

ولكن في الليلة نفسها خرجت أوتاكي من البيت بمفردها وألقت بنفسها من فوق صخرة عالية لتسقط في نهر توتسوكاوا.
كانت ليلة طقسها حارٍ رطب يطل في سماءها بدرٌ كامل الامتلاء
كبير الحجم أحمر اللون...»

بعد أن حوّلت مالكة النُّزل نظرها ببطء شديد، نظرت إلى خارج النافذة. يُسمع منذ لحظات صوتٌ خافتٌ للغاية لجريان نهر مختلطًا مع صوت الضفادع.

شكّ ماساكي في ما سمعه. ولكن عندما أنصت، سمع علاوة على ذلك أصوات طيور الرفراف من العمق.

«نهر توتسوكاوا؟»

... ولكن المسافة حتى نهر توتسوكاوا بعيدة إلى درجة كبيرة جدًا.

تحدّث ماساكي متجهًا إلى مالكة النُّزل التي ظلّت كما هي صامتة.

«ها هو صوت الضفادع المعتاد، ولكن هل الذي يرافقه هو صوت

الطيور المائية؟ يصيحون بشدّة منذ مدة، أليس كذلك؟ هل هناك نهْرٌ

قريبٌ من هنا؟»

ظهرت الدهشة على وجه وهزّت رأسها بالنفي. ثم ضحكت بشكل

مبهم وهي تقول «هاها!». تجمّد ماساكي من الخوف. فلقد رأى من قبل

ملاحح الشكّ نفسها. ثم وفي الوقت نفسه الذي تذكر فيه ذلك، انتبه إلى أنّ صوت ذلك النهر قد أصبح سريعاً، وصار شيئاً مألوفاً وحميمًا بالفعل.

لأنّ الصوت الذي استمعتُ إليه داخل الكوخ الصغير في ذلك الجبل. ثم عندما سألتُ عنه الراهب المبجل عقد حاجبيه مرتاباً في ما أقول.

في تلك اللحظة تسرّبت من فم ماساكي كلمة:
الماء الهادر له صدىً مثل الجواهر.

تعرّق صدر ماساكي، عرق يشبه دموع الشموع. ولكن على ما يبدو فإن مالكة النزل لم تسمع ما قال. أمالت عنقها، واقتربت بوجهها من فمه وسألته ماذا؟

ولكن ماساكي حاول خداعها وصرف انتباهها فقال:
ماذا حدث بعد ذلك لتلك الفتاة التي تسمى أوتاكي؟
المالكة وكأنّها قد عاد وعيها إليها أكملت حديثها.

لنعم، ماتت بهذا الشكل. وقد جرفها التيار حتى منطقة أوتسورو. ... بالطبع، ربما كان الأمر مجرد حادثاً عرضياً. فرغم أنّ المطر كان في ذلك العام قليلاً، ولكن في الأصل هذه المنطقة كثيرة الأمطار، وفي تلك الليلة كان تيار ماء النهر في غاية السرعة. فقد كان ذلك موسم الأمطار⁽¹⁾.

(1) موسم الأمطار: تتميز اليابان عامة بكثرة الأمطار طوال العام حيث يصل متوسط الهطل المطري إلى حوالي 2500 مليمتراً سنوياً وهو من أعلى المعدلات في العالم. ولكن يوجد بصفة خاصة موسم يسمى موسم الأمطار تكون فيه الأمطار مستمرة على مدار اليوم لمدة تقرب من الشهر ونصف، ويكون هذا الموسم من بداية شهر يونية إلى منتصف شهر يوليو، وبنهايته يُعلن عن بدء فصل الصيف

وأنا أقول ذلك الآن تذكّرت أمراً، حصل ربما بسبب مرضها النفسي، فمنذ أن عادت أوتاكي من الجبل كانت تشرب الماء بكميات كبيرة. وإذا لم يمنعها أحد كانت تشرب صاعاً أو صاعين بسهولة. وفي الليلة التي ماتت فيها، كانت تزيد من شرب الماء بدرجة أكثر من المعتاد وهي تقول «إني عطشى، جسدي ساخن»، وهناك من يقول إنه ربما يكون هذا هو سبب ذهابها إلى النهر.

ولكن أهل أوتاكي، يعتقدون أنها هي التي رمت بنفسها في النهر، لأن ذلك حدث بعد تلك الأحداث العظام... ثم عند التفكير بهذا الشكل، الرضيعة التي كانوا حتى ذلك الوقت يعتنون بها بحب وحنان، لسبب ما أصبحت موضع حقدهم تدريجياً، وسيّبت لهم شعوراً بالاستياء... ولكن رغم ذلك، صبروا وتحملوا حتى الانتهاء من مراسم الجنازة. في هذه المنطقة الجميع يدفنون موتاهم⁽¹⁾، ولذا فأوتاكي أيضاً تم دفنها في مقابر الجبل المجاور.

شديد الحرارة وشديد الرطوبة أيضاً. وكمية الأمطار في موسم المطر غير ثابتة فتكون غزيرة أعواماً وقليلة أعواماً أخرى.

(1) دفن الموتى: طقوس الجنازة في الديانة البوذية توجب حرق الجثة. أما في ديانة الشنتو فيتم دفن الجثة. والقرية المذكورة أغلبهم سكانها يدينون بالشنتو فالأصل عندهم هو دفن الجثث وليس حرقها. في بداية عصر مييجي وبسبب محاولة جعل الشنتو هي الديانة القومية لليابان، صدر مرسوم حكومي في العام السادس من حكم مييجي (1873) بمنع حرق الجثث. ولكن بسبب المعارضة الشديدة للجماعات البوذية وتفضيل الهيئات الصحية للحرق وكذلك بسبب قلة مساحات الأراضي في اليابان، صدر بعد عامين أي في العام الثامن لحكم مييجي (1875) مرسوم يبيح حرق جثث الموتى. والآن أصبح الحرق هو القاعدة الآن بين اليابانيين والدفن هو الاستثناء، وأحد تلك الاستثناءات هي العائلة الإمبراطورية التي تدفن جثث وفياتها كما هي من دون حرق.

وأنا كنت حزينة، حزينة جدًا، وظللت أبكي من دون أن ألقى نظرة على جثمانها، ولكن فقط أتذكر جيدًا وجه أمها الذي نحف إلى درجة بشعة للغاية.

بعد انتهاء مراسم الجنازة أيضًا، ظلت أم أوتاكي ترعى الطفلة الرضيعة، ولكن يبدو أنها أصبحت عنيفة معها بدرجة كبيرة... وحتى الجارة التي كانت ترضعها مع أطفالها، عندما رأتها حذرتها عدة مرات، وفي كل مرة يحدث عراكٌ بينهما.

ويبدو كذلك أنَّ والدة أوتاكي كانت كثيرًا ما تنساب من فمها لمن حولها عبارات مثل «عيون هذه الطفلة مقززة!». وتقول إنها عندما تنظر إليها تصاب بألم في الصدر ورغبة في القيء. وعند السؤال عن السبب يبدو أنَّ موت أوتاكي لم يكن السبب الوحيد لذلك.

أنا لا أعلم تفاصيل القصة بالكامل، ولكن تصادف في تلك الفترة أنَّ أحد الرهبان الرَّحَّل جاء إلى النزل، نعم، في بعض الحالات النادرة جدًا يأتي رهبانٌ من طائفة شوغندو إلى هذه المنطقة، بعد انتهاء تدريبهم الروحي... ورغم قول ذلك إلا أنَّ ذلك الراهب على ما يبدو كان وضعه مختلفًا... أجل. عندما رأى الراهب عيون تلك الرضيعة، يبدو أنَّه قال إنها عيون سامة... على كلِّ حال، إذا سمعنا ما قال بالتفصيل، فهي عيون في غاية الرعب، إذا نظرت إلى شخص، فهي تضره ضررًا شديدًا، أو ربما تقتله.

لم يكن والدا أوتاكي من يؤمنان بالخرافات، ولكن كما هو متوقَّع، بسبب ما حدث لابنتهما أوتاكي، وبالإضافة إلى أنَّ الأم لن تكن حالتها الصحية على ما يرام، لذا، وللأسف، صدَّقا ما قاله الراهب. وقدَّما من

العطايا الشيء الكثير جداً وطلباً منه قراءة كتب السوترا المقدسة عليها.
... بعد ذلك، ولفترة ما لم يحدث شيء. ولكن بعد مرور حوالي
سنتين، ماتت الأم فجأة... ماذا يمكن أن أقول؟ بالطبع بسبب ما حدث
لأوتاكى، وما تلى ذلك من أحداث جعلتها تظل متعبة نفسياً وجسدياً،
هذا عدا عن أن صحة الأم من الأصل لم تكن جيّدة.

كان الذي تأثر من جرّاء ذلك هو الأب الذي أصبح وحيداً... وقد
أصبح الأب في حالة رعب شديدة من الطفلة، فأخذ يقول «أنا لا أريد أن
أموت الآن»، ولا أعلم من أين جاء بهذا الكلام، ولكنه قال إنّه إذا كان
هناك شيء به ضرر، وتم لف ذلك الشيء بجلد ذئب، سيختفي ضرره،
ولكن لأنّه لم يكن يملك جلد الذئب ذلك، غطّى وجه الطفلة بجلد
خنزير بريّ عوضاً عنه، ولم يكشف منه إلا الأنف والفم فقط.

حقاً، الإنسان عندما يضطرب عقله يقوم بأفعال مرعبة لا يمكن
تخيّلها. ولكن في تلك الأثناء انتشرت في القرية الشائعات، ولذا لا
يمكن القول إنّ الأب فقط هو المخطئ. وربما كان الأمر بالنسبة لرجل
متعلم مثلك يا سيد إيهارا يبدو أمراً أبلهًا، ولكن هذه القرية كائنة في
وسط الجبال... على أيّ حال، بالإضافة إلى موضوع عين الطفلة
الضارة بالطبع، عاد الناس إلى الماضي، وإلى حادثة فقدان أوتاكى
عقلها في الجبل، فتواترت بينهم حكايات مثل الأحلام وكأنّها حقائق،
مثل أنّ إله الجبل حقد عليها لشدّة جمالها، أو على العكس من ذلك،
أنّ سبب حملها هو أنّ إله الجبل قد عشقها وظهر لها في صورة ثعبان
وضاجعها، وغير ذلك من شائعات... وسط تلك الجلبة والفوضى،
بالفعل اعتقد أنّ الأب فقد تماماً قدرته في الحكم على الأمور بشكل

صحيح.

في القرية، كان هناك من يُحدث ضجّةً وجلبةً، ويعبث من أجل الاستمتاع فقط، ولكن لم يكن الجميع ذوي مشاعر باردة بهذا الشكل. ولذا تحوّلت الطفلة، بهذا المنظر الذي يدعو للأسى، إلى ما يشبه الشيء المعروف في المحلات؛ يأتي الجميع للنظر إليها، عزم الجميع على عمل شيءٍ ما من أجلها. ولكن عندما يفكّرون في ما يمكن فعله، لا تتفق آرائهم. كان لدى الجميع، على الأغلب، التفكير نفسه؛ يجب إقناع جدّ الطفلة بنزع القناع عن وجهها. ولكن لأنّ فعل الجدّ، من الأصل، لم يكن فعل عقلاء، فعند الوصول إلى مرحلة التفكير في كيفية إقناعه، كان كل واحد منهم يقول قولاً مختلفاً عن الآخرين.

ظهر من قال: «فلنذهب جميعاً ومعنا الطفلة إلى معبد جبل تاماكي، وأخذ البركة لطرد الأرواح الشريرة من جسدها.»، كان ذلك من الآراء القليلة العقلانية نوعاً ما. ومنهم من قال: «النفقاً عينيها من قبل أن تعي الطفلة الدنيا.»، وهناك من تطرّف في العنف والوحشية وقال: «فلنقتل الطفلة الآن لأنها لو عاشت بهذا الشكل فلن ترى السعادة أبداً.» ورغم ذلك، الأغلبية من الناس كانوا في ريب من أمر العيون الضارة تلك، ويفكّرون أنها سواء كانت كذلك بالفعل أم لا، فإنه من الأفضل نزع القناع عن وجهها ولو بالقوّة. ولكن، في الواقع، لم يحاول أحدُ فعل ذلك. رغم أنهم يعرفون من حيث المنطق والعقل استحالة وجود ذلك التأثير للعيون. ولكن عندما يتذكّرون أمر أوتاكي ويتذكرون أمر أمها، يقولون: ربما ويمكن.»

الأثناء ذلك، وفي أحد الأيام جاء إلى القرية أحد الرهبان، وهو راهبٌ آخر يختلف عن الراهب الذي تحدّث عن العيون الضارة. ويقال إنّه كان في الماضي من أهالي هذه المنطقة، ولكن المعبد البوذي الذي كان يتعبّد به تم حرقه في حملة القضاء على البوذية وتدمير المعابد الشهيرة، ومن وقتها خرج ليجوب البلاد البعيدة في رحلات حج وتعبّد.

الراهب الذي سمع بالحكاية، توجه إلى نزل الجدّ وشاهد الطفلة. ولكن الجدّ عندما رأى عظمة وجلال الراهب ربما أحسّ بالخجل ولم يستطع إبلاغه بالحقيقة، وخطر له في التوّ والحال أن يكذب عليه، فقال له إنّه يضع قناع الجلد على وجه الطفلة لأنها مصابة بالجذام. والسبب هو الخوف من انتقال المرض إلى شخص آخر.

بالطبع لم يسمع أحد من قبل بهذه الطريقة الفظة للعلاج، ومن المفروض أن يدرك المستمع على الفور أنّ الجدّ يكذب، ولكن لا أدري كيف فكّر ذلك الراهب، قال: «إذا كان الأمر كذلك فهناك خوفٌ من انتقال المرض إليك أنت أيضًا، لذا فأنا أريد أن آخذ هذه الطفلة معي.»

... ويبدو أنّ الأهالي الذين تجمّعوا للمشاهدة ما يحدث تعجّبوا لقول الراهب، ولكن الجدّ بعد أن فكّر في الأمر، وافق الراهب على طلبه.

وكان ذلك، حسب اعتقاد الأهالي، أمرًا جلالًا، لذلك ظلّت تلك الحكاية مثار حديث الناس في القرية لفترة من الزمن. في نهاية الأمر، لم يرد أحدٌ من سكان القرية أخذ الطفلة ورعايتها، ولذا قال الجميع إنه

إذا كان الجُدُّ موافقًا على ذلك فليكن . ولكنهم رغم ذلك قالوا للراهب إنَّ الجُدَّ حاليًا ليس في حالةٍ عقليةٍ طبيعية، فربما وبعد مرور وقت ما، وبعد عودة عقله إلى حالته الطبيعية، ربما جاءك يطلب استعادة حفيدته، فيجب عليك وقتها أن تعيدها له صامتًا من دون أيِّ اعتراض . ثم بعد ذلك أضافوا طلبًا آخر؛ من أجل تنفيذ ذلك يجب ألا تأخذها وتذهب بها إلى مكان بعيد، وإزاء ذلك الطلب أيضًا أبدى الراهب موافقته، وقال || إذا كان الأمر كذلك فسأصنع كوخًا صغيرًا داخل ذلك الجبل المطل على القرية .|| ... أهل القرية عندما فكروا أنَّ الأمر سيكون فقط تركها معه لفترة محددة، فكَّروا أنَّ الأمر معقول، علاوة على ذلك، لأنهم كانوا يشعرون في مكان ما داخلهم بما يشبه عقدة الذنب، قالوا إذا كان الأمر كذلك، لتتقبل ما عرضه علينا الراهب المبجل، ولتنتهز الفرصة وننشئ له في موقع حرق الفحم القديم في الجبل كوخًا صغيرًا على هيئة قاعة للصلاة وكوخًا آخر للبنات الصغيرة ونطلب منهما العيش هناك .

... عندما أعاود تذكُّر ذلك الآن، بعد حملة القضاء على البوذية وتدمير المعابد، كان بناء ما يشبه المعبد البوذي خصيصًا، هو أمرٌ في غاية العجب، ولكن وقتها كان الجميع بالفعل متحمسين للغاية للتخلص من تلك الطفلة .

بعد ذلك، لمدة طويلة، كان الجميع يترددون على الجبل حاملين معهم الطعام والملابس . واستمر الحال هكذا لمدة ثلاثة أو أربعة أعوام . ولكن بعد ذلك أصبحت زيارتهم للجبل تقلُّ تدريجيًا عندما كانت في النُّزُل كانت طفلة ذكية للغاية، وكانت قد بدأت تنطق كلمات عديدة مع أنها كانت تتكلم بصعوبة، وبعد ذهابها إلى الجبل

يبدو أنّ الراهب قد علّمها فأصبحت تتحدّث في كلّ شيءٍ وأيّ شيءٍ، وعندما يأتي إليها زائرٌ من أهالي القرية، تتحدّث إليه من داخل الكوخ وتساله بشغفٍ عن هذا وذاك من أحوال القرية. يا لها من طفلة تعيسة للغاية... في الأصل، الجميع لديهم حياتهم اليومية، وليس لديهم متسعٌ وبرائحٌ إلى هذه الدرجة، علاوةً على أنّ صعود الجبل في الشتاء عملٌ شاق، فصار الراهب المبحّل يزرع بنفسه شتلات الأرز وغيرها من المزروعات التي يمنحها له أهل القرية، وعندها انقطعت الأرجل عن التردد على الجبل تلقائياً.

ربما تعتقد يا سيد إيهارا، أنّ ذلك الحديث قاسٍ لأقصى درجة، ولكن الأب أيضاً مخطئ. فالجميع بذل ما لديه من خزين قليل، وحمل الأظعمة للجبل، ورغم ذلك فالعجوز، وحتى النهاية، لم يذهب إلى هناك مطلقاً ولو حتى لمرةً واحدة. فحتى مقتنيات أوتاكي من أمشاط وغيرها حملها للآخرين وجعلهم يذهبون بها هم إلى الجبل... علاوة على ذلك ومنذ البداية، كان هناك من أهل القرية من لا يوافق على هذا العمل. وحتى الناس الذين كانوا يفترض أنهم يتردّدون بجديّة على الجبل، أصبحوا يكذبون ويخدعون بخصوص ذلك، وعندما اتّبه الناس، وجدوا أنّه صارت تمرُّ شهورٌ وشهور ولا يذهب أحدٌ للجبل، في النهاية، ابتعد الناس أكثر وأكثر عن الجبل.

... مرّت خمس سنوات، فعشر، وانقطع الناس تماماً عن الصعود إلى الجبل. في تلك الفترة، لم يقابل أحدٌ تلك الطفلة بتاتاً. ولكن من جهة أخرى بدأت تنتشر في القرية شائعات ممقوتة. فهناك من يقول إنه رأى في أنحاء ذلك الجبل أشباحاً، ومن يقول إنه صادف

ما يشبه العفاريت، وبعد ذلك عندما أصبحت الشائعات أكثر غرابة، ظهر من يؤكد أنّ الهاربين من جماعة «تن تشو» جعلوه وكرًا يخبثون فيه. ... وفكر الشباب، ومن لا يعرفون أصلاً أمر أوتاكي، ويسمعون تلك الشائعات، إذا كانت الطفلة ابنتها فمن المؤكد أنها قد أصبحت في منتهى الجمال، فكانوا يحاولون الذهاب متبّعين الطرق القديمة للتلصص عليها. ... ولكن لسبب ما، يضلُّ جميعهم الطريق. وهذا ما، جعل شائعةً أخرى تنتشر، إذ يُقال إن الفتاة التي أصبحت في سن البلوغ إذا مرَّ من أمامها شابٌ قويٌّ عظيم الهيئةً مثلك يا سيد إيهارا، فإنها تسحر البشر والحيوانات لكي تدعوه إلى الجبل ثم تحتجزه أسيراً لها...

ولأنّ الوضع كان كذلك، وبعد الفيضان الكبير الذي حدث منذ ثماني سنوات، عندما عُرف أنّ الأب كان من ضمن الناس العديدين الذين ماتوا، كان هناك من أهل القرية من قال إنّ ذلك ولا شكّ هو انتقام الفتاة التي رماها في الجبل. فبالصدفة، وقبل أيام من هطول ذلك المطر الشديد، ظهر ذلك البدر المتوهّج بالحمرة ذو الفأل السيئ، بالضبط كذلك الذي ظهر في الليلة التي ماتت فيها أوتاكي، وبالتأكيد كان ذلك أحد أسباب تفكيرهم بهذا الشكل...

بعد أن همست مالكة النُّزل بالجزء الأخير، تقريبًا وكأنها تحدث نفسها، تسرّبت منها تنهيدة أسى عميقة. ثم قالت بملامح تمتلئ بالحزن والأسى، ولكنها الملامح نفسها التي ظلت تخيم عليها طوال حديثها والتي لا يمكن التفريق بينها وبين ملامح الابتسام.

لأنّ نفسي في الحقيقة لا أدري إلى أيّ مدى يمكن تصديق تلك

الحكاية. فأنا كنت أعرف أمر أوتاكي جيداً، ولكن ما حدّثتك عنه الآن أغلبه تم إعلامي به بعد أن كبرت. بالطبع، اعتقد أبواي أنّه من الأفضل لي ألا أعرف وأنا في سن الخامسة أو السادسة عشر، بأنّ صديقتي أوتاكي قد حملت بعد خطفها واغتصابها في الجبل. ولذلك يبدو أنّ القصة التي سمعتها أنا، أُضيفَ إليها مع مرور الوقت زوائدٌ تختلف قليلاً باختلاف الشخص الذي يحكيها. على سبيل المثال، كان هناك من يقول إن الرهب الذي تحدّث عن العيون الضارة، هو ذاته الرهب الذي اصطحب الطفلة إلى الجبل. وهناك من يقول إنه بعد مرور عام من الصعود إلى الجبل، اختفى الاثنان ولم يعد لهما وجود في الجبل. في الواقع، بعد أن سمعتُ القصة، ذهبتُ أنا بنفسني عدة مرات إلى الجبل، ولكن كما يحصل عادة، ضللتُ الطريق، ولم أستطع الوصول إلى مكان ذلك الرهب. كان ذلك منذ سنواتٍ عديدة مضت.

وهنا أخذت أفكر كثيراً في الأحاديث التي سمعتها من الناس وحاولت تجميعها مع بعضها، ثم أخذت أتذكر شيئاً فشيئاً ما سمعته وقتها أنا شخصياً بأذنيّ هاتين، وحكيت تلك القصة لك الآن يا سيد إيهارا بشكل يوافق المنطق على قدر الإمكان. هذه أول مرّة أحكي تلك القصة من البداية إلى النهاية. الناس هنا لا يرغبون الآن في تذكّر تلك الحكاية. وأنا أثناء تذكّري الآن لهذا وذاك من الأمور، ضغطت على صدري الكثير من الأمور، وبلا وعي تحدّثت طويلاً جداً من دون التفكير في حالتك يا سيد إيهارا... ۞

بعد أن أنهت مالكة التزلّ قصتها، لم يكن إيهارا يستطيع التحمّل

أكثر من ذلك فنهض من الفراش رافعاً ظهره قائلاً:

«... يا مالكة النُّزُل اسم تلك الطفلة، هل هو...»

سقطت المنشفة البيضاء من على جبهته وكأنها كتلة من الجليد الذي تراكم بعد هطوله، وانهار من على سقف المبنى.

«نعم اسمها تاكاكو... هل تعرفها يا سيد إيهارا؟»

بعد فترة من تأمله لوجه مالكة النُّزُل مذهولاً قال ماساكي:

«... لا، أبداً...»

ثم رقد على الفراش مرّةً أخرى.

بعد أن أخذت مالكة النُّزُل المنشفة من يد ماساكي قالت:

«لأنك قمت هكذا فجأة، ظننتك تعرفها. ما هو وضعها الآن يا ترى؟... ربما تكون، كما هو متوقع، قد انتقلت للعيش في مكانٍ آخر من البلاد، لأن المكان منعزل في عمق ذلك الجبل ويصعب استمرار الحياة هناك.»

... على أيِّ حال، هذه الحكاية، ستُنسى تمامًا في يوم من الأيام، ألا

ترى ذلك؟»

«... هذا ما سيحدث بالتأكيد.»

بدلاً من الإيماء برأسه، جعل جفونه تطرف ذهاباً وإياباً مرة، وضعت

مالكة النُّزُل راحة يدها على جبهة ماساكي:

«أما زالت الحمى موجودة... لقد أصبح الماء فاتراً، سأذهب لأحضر

ماءً غيره.»

... ماساكي الذي أغمض عينيه، وصل إلى أذنه صوت أقدام مالكة

النُّزُل على حصير التاتامي مرتين أو ثلاثاً. فُتح الباب بشكلٍ خجولٍ

للغاية، إلى درجة تجعل المرء يتخيّل مرور خصرها النحيل منه.
عندما خرجت إلى الممرّ، سعلت مالكة النُّزُل سعالًا خفيفًا. كان
صوتًا جميل البحة، جافًا، مثل ماسورة الحديدية المصنوعة من أعواد
الخيزران بلون أوراق الشجر الذابلة.

﴿بمجرّد هبوطي إلى الطابق السفلي، وجدتُ شيئًا نادرًا...﴾
مالكة النُّزُل، التي عادت حاملةً الإناء في إحدى يديها، حملت
لفترة بعينين متسعيتين لتغيّر منظر الغرفة.
فلم يكن ماساكي موجودًا في الفراش.
﴿هل ذهب يا تُرى إلى المرحاض؟﴾
عندما حاولت فتح الباب، أعادت مسك الشعلة اليدوية التي كانت
تمسكها بيدها التي تحتضن الإناء مرّةً أخرى بيدها الفارغة، ودفعت بها
للإمام.
كان غطاء الفراش الخفيف يبدو وكأنّه يرقص فوق حصير التاتامي
بعد أن تم رميه بقسوة وعنّف.

أمالت عنقها الصغيرة بارتياحٍ على ما يبدو. في ركن الغرفة كان
زي ﴿اليوكاتا﴾ ملقًى على الأرض بعد خلعه. ولكنها لم تتبّه له. عندما
أدارت بصرها أكثر من ذلك، ظهرت لها الحقيبة التي تُركت على رأس
الوسادة. وهنا لأول مرّة تشعر مالكة النُّزُل بالاطمئنان. ثم أحسّت فجأة
بازدياد ثقل الإناء.

بعد ذلك دخلت الغرفة ووضعت الإناء، وجلست برقيٍّ واضعة
ساقها تحتها وهي تحرص على عدم انكشاف طرف الثوب. ما تراه

أمامها هو زهور ملكة الليل البيضاء التي تفتّحت في ذلك اليوم للمرّة الأولى. تلك الزهور التي وضعها نزيل قبل عدة سنوات، جاء من مدينة أوساكا، فاعتنت بها مالكة النُّزُل ورعتها حتى اليوم محافظة عليها من الذبول.

استعادت مالكة النُّزُل أنفاسها بقليل من الكآبة وهي تشمُّ تلك الرائحة الجميلة التي تفوح مع نسائم الليل. ثم وكأنها تنظر إلى مكان ما في الأفق البعيد، ألقت بنظرها على الزهور القريبة منها. في الوقت القليل الذي مضى استولى على قلب مالكة النُّزُل حزنٌ لا يمكن التعبير عنه. الأحاسيس الكثيرة التي خفّت حدّتها مع الذاكرة، بُعثت أخيراً من جديد، والتصقت باردة على صدرها.

لم يسبق أن روت مالكة النُّزُل قصّة الفتاة أوتاكي لأحدٍ من قبل. ربما كان السبب هو عدم مصادفة تلك الفرصة. ولكن فرضاً لو أنها كانت قد حصلت بالفعل على الفرصة فالمتوقَّع أنها بالتأكيد لم تكن لتحكي شيئاً. لم تكن مالكة النُّزُل تصدق أنها تستطيع رواية تلك الحكاية حتى نهايتها. فالحديث عن إنسانٍ ميتٍ، يعني أن يتم إبعاد ذلك الشخص إلى الأفق البعيد. أو الاعتراف سريعاً بأن ذلك الشخص قد ابتعد بالفعل إلى الأفق البعيد. لم تكن مالكة النُّزُل تستطيع فعل ذلك. أو على الأقل كانت تعتقد أنها لا تستطيع فعل ذلك.

ولكن أثناء روايتها الحكاية لماساكي، تعجّبت مالكة النُّزُل من أنها ترويها بمهارة على غير ما توقَّعت. على كلِّ حال، كان العجيب أنها استطاعت الانتهاء من رواية أحداث الحكاية حتى نهايتها بتتابع تسلسلها وهي تقوم في بعض الأوقات بشرح إيمان القرويين العميق

بالخرافات والدفاع عنهم. ثم بعد ذلك أصبحت تعتقد بشكلٍ أو بآخر
أنَّ ذلك عملٌ تافه.

والحقيقة أنها تشعر الآن أنَّ منظر أوتاكي الذي تحنُّ إليه قد أصبح
بعيداً جداً عنها. في مقابل ذلك، الحزن الذي كانت على وشك نسيانه،
نبع من جديد واختلط مع حزنٍ آخر مختلف، وأطبق على صدرها
بشكل لا تستطيع تحمّله.

الظلُّ المضمحلُّ الذي سقط على الزهور جعل عيون مالكة النُّزل
تبدو حزينة. عندما لمستها بالسبابة عابثةً اهتزت الزهور وكأنها تتمنّع.
كانت تردّد لنفسها وتقول إنَّ الشيء الزائد عن الحدِّ في جماله، لا
يعيش طويلاً. ثم تذكرت ملامح وجه أوتاكي وهي تقول لها إيا تشان!
... ثعبان كبير قام ب...!. وانهمرت منها الدموع تلقائياً.

بعد مرور لحظة، انتبهت مالكة النُّزل فجأةً إلى أنَّ ملابس ماساكي
التي من المفترض أن تكون معلقة بجوار النافذة غير موجودة في
مكانها. وعندها انتبهت للمرّة الأولى لزي اليوكاتا الذي على الأرض.
التفتت مالكة النُّزل إلى الخلف وهي ترتعش.

انطفأت الشمعة بهدوء قبل أن يكتمل احتراقها تمامًا.

كان ماساكي على وشك صعود الجبل وهو يجرُّ قدمه المضرجة
بالدماء.

فقد جاء ركضاً إلى هنا مباشرة بعد أن غادر النُّزل. جاء يجري بعد
أن ألقى بعكازته التي يتوكأ عليها، وهو يضرب الأرض بقدمه اليسرى
مراتٍ عديدةً وكأنها فأس.

ظلال قرية كوتاني أصبحت بعيدةً بالفعل. السكون صافٍ. ولا
يتردد في الأنحاء إلاً صدَى صوتِ حُفِّ القش، وهو يركل الأرض،
وصوت أنفاس ماساكي المضطربة.

«كان يجب ألاً أغادر الجبل!!»

توقّف ماساكي ونظر عاليًا إلى السماء من بين أغصان الشجر. القمر
غائبٌ عن الأفق البعيد. ولكن حتى هذه اللحظة ينعكس لمعانه المبهر
في عيني ماساكي. ينساب على العيون وينعكس وكأنه يحاول استكمال
صبغها بلون ذهبي ناصع. ذلك التألق الغني الذي كأنه امتصَّ كلَّ أشعة
الأرض وجمعها لنفسه بنفسه. التألق البعيد جدًّا، البارد، ذو الوحشية
التي تواصل إغراء الناس بسرِّية رغم علمها أنه لا يمكن لأحد الوصول
إليها. التألق الذي ينعدم ثم يُبعث من جديدٍ لمراتٍ عديدة. التألق الذي
يخفي أسرارًا كثيرةً جدًّا إلى درجةٍ لا يمكن حصرها وعدّها... تلك
المرأة الجميلة الخيالية ذاتها التي كانت هي بحقٍ ظهر امرأة الحلم،
التي يحاول ماساكي الحصول عليها الآن. في عمق أعماق هذا الجبل
السريِّ الهادئ، توجد امرأة تعيش في وحدة، جاعلة عينيها الغارقتين في
الموت، تلمعان بريية. طرفت جفونها ببطء، كفراشة ترفرف بجناحيها،
وهي الآن قد ملّت انتظار وصول الفتى الذي تأخّر في المجيء.

يرى ماساكي منظرها ذلك بشكلٍ مؤكّد. في الظلام البعيد، في
الحلم الملوّن نفسه، تبدو بارزة بوضوح.

صعد طريق الجبل في خط مستقيم. استمر في الركض وهو يفرّق
الأغصان ويمسك الأعشاب المعلقة على الأشجار بيده بعنف. كلما
تقدم في المسير، ازدادت الأغصان والأوراق كثرة وغزارة، وازدادت

الأشواك حدة. تنغرز في بطن قدمه أعواد الخشب الذابلة التي اخترقت الخفف المصنوع من القش. صدره الذي انفتح عنه الرداء، التصقت به أوراق الشجر. ذراعيه اللتان انكشفتا من كمّي الرداء، منقوشٌ عليهما عدد لا نهائي من الجروح، وينضح منهما عرقٌ متسخٌ يشبه الماء الساخن.

أصبح التنفس عنيقاً بشكل خاص. يحاول بلع لعبه الكثيف عنوة، ولكنه يُحتجز وكأنَّ طريقه قد انسدت.

الجبلٌ يلاحقه بالباح مثل قطيع من الكلاب الضالة. مهما أبعده مرّة بعد مرّة، لكنه كان يحاول الإمساك بتلك الساق النحيفة، والغوص بها إلى أعماق الأرض. تلوى وجهه ماساكي بسبب المعاناة. تدفقت دماء كثيرة بالفعل من جرح قدمه.

عندما كان يستمع إلى حديث مالكة النزل، قبل أن يفكر في المرأة الميئة التي تدعى أوتاكي، وقبل أن يفكر كذلك في أمها، قبل ذلك كله تخيل جثته هو نفسه وهي ملقاة أمام الأقدام الجميلة البيضاء. فكر في سعادة تلك اللحظة. ماساكي أثناء ركضه ارتاب في ذلك الاندفاع الأسود المشؤوم الذي يقوده. ارتاب في ذلك الاندفاع بالغ العنف الذي هجم على السد الذي يحتجز حماسه الراسخ في عمق جسده محطماً إياه، لكي يترك تياره الرئيسي ينطلق بحرية في كامل جسده.

هل يا ترى أركض من أجل ملاقاته الموت؟

في كل مرّة يهجم عليه الدوار، يسأل ماساكي نفسه ذلك السؤال. كان يشق إلى المرأة بالفعل منذ مدة طويلة. ولكن لم يسبق له أن اشتاق إليها بشدة كما هو حاله الآن. والسبب هو أنه قد آمن أن الموت

يسكن عيون المرأة كما جاء في حديث مالكة النزل. لأنه آمن أن تلك العيون ستخترق روحه في سخونة مثل رماح نارية مسنونة.

«هل معنى ذلك أن مرادي هو أن أُقتل؟»

سأل نفسه هذا السؤال، ولكن ماساكي هزَّ عنقه بعنف. إذا كان الأمر كذلك، فهل استسلم لفكرة أن في سبيل رؤية وجه المرأة، لا مفر من الموت بواسطة نظراتها تلك؟ لا، هذا أمر مختلف أيضًا. فماساكي لا يتمنى مطلقًا من الموت. على العكس هو يتمنى الموت من كل قلبه. بل أكثر ما يخشاه ماساكي هو الحصول على المرأة، ثم استمراره في الحياة بعد ذلك. يجب أن ينال المرأة والموت في اللحظة نفسها.

«أنا لا أركض من أجل الموت، مطلقًا ليس هذا هو الأمر! فأنا في ذلك الوقت، بالضبط في تلك اللحظة التي تنقطع فيها روحي، لحظة الحياة المطلقة التي لم أعرفها قطُّ منذ الميلاد وحتى الآن، أعيش تلك اللحظة الواحدة المنفردة الخالصة. تلك اللحظة التي تُقدِّم إليها جميع الأفعال، تلك اللحظة التي لا ينتهكها المستقبل المحتوم مجيئه... تاكاكو هي من تحمل لي كل ذلك. أنا أعشق تلك المرأة. أعشقها عشقًا لا يفوقه شيء. لا يوجد في العالم إلا حماسة الرغبة في العشق. من المفترض أن أمنية أن تُعشق، ليست حماسةً على الإطلاق! بل هي بالضبط ذلك الذي يُدعى «العشق»! أنا الآن على وشك الوصول إلى تلك المرأة بكل ذلك الحماس. على وشك النظر إلى تلك العيون... إنَّ حماستي هو ملكي أنا حتى النهاية. بالتأكيد أنا في لحظة الاكتمال تلك، أتمنى أن أكون أنا، وألا أكون أنا. أتمنى أن أتوحد مع تلك المرأة. ولكن من أجل ذلك، يجب عليَّ الاستمرار في أن أكون أنا حتى

الوصول أمامها تمامًا، حتى الوصول إلى تلك اللحظة تمامًا. عندها من المفترض أن ندمج أنا والمرأة للمرّة الأولى، من المفترض أن نتوحد معاً! هل يوجد ضرورة للشكّ في ذلك؟ لا، مطلقاً، لا يوجد شكّ أبداً. أنا فقط أو من بذلك، أو من بذلك حقاً!!

رغم انقطاع أنفاسه إلا أنّ ماساكي واصل السير قدماً.

تغيّر الريح الخفيفة التي تحتكّ بأذنه، سريعاً إلى صوت تدفق ماء النهر، ويتردّد من أعماقه صدى أصوات طيور الرفراف. والغريب أنّه يسمع ذلك الصوت مختلطاً مع صوت المرأة. ذلك الصوت الذي لم ينطق في ذلك اليوم حتى النهاية إلا بكلمات الرفض، الآن يتصافر مع صوت طائر خرافي يصيح طالباً الماء، ويشعر ماساكي أنّه يحاول جذبته بكلّ قوّة وتأكيد. يشعر أنّه يقود خطواته. ينطلق صوت المرأة من الأفق البعيد، ليهمس إليه بجوار أذنه. صوتٌ لا يمكن تمييزه، هل هو كلامٌ أم لا؟ كأنّه يغويه ويجذبه إلى مكانه في الأعالي البعيدة...

ولكن بعد لحظة، بعد أن تخطى غابةً من الأحرش، اختفى فجأة الطريق من أمام عينيه.

ظلّ ماساكي واقفاً في ذهول.

فلقد جاء بشكل ما إلى هنا متتبّعاً ما تبقى في ذاكرته، يوم أرشده الراهب إينيو إلى طريق الهبوط من الجبل. ولكن، الظلام الأسود اللامع الذي انبسط أمامه، وكأنّه أمواج ضخمة، ابتلع الطريق تماماً.

كلّما ازداد حجم الأحرش، ازداد قلق ماساكي. فقد عمل على اختراق تلك الأحرش بأيّ حالٍ للوصول إلى هنا.

تنتشر غابة من أشجار البلوط، في كآبة خالية من الملامح.

عندما توقَّف عن الركض، أصبحت آلام قدمه فجأة أكثر شدة. ولم يكن ماساكي يستطيع تحمُّلها، لمست ركبتيه الأرض. هجم الدوار بدون هوادة على الكتفين، وجعل الجسد كَّله يرتمي على وجهه في ذلك المكان.

... رائحة الطين والأوراق المتعفِّنة اخترقت أنفه. فوق الرأس صوت وقواقٍ يصيح من وقتٍ لآخر متغلبًا على أصوات طائر الرفراف السابقة. الجسد ثقيل، فلا يستطيع القيام واقفًا. الدماء تتدفَّق من الجرح بلا توقُّف.

وعيه أصبح مشوشًا وعلى وشك أن يفقده. وبلا وعيٍ جمع ماساكي قوته في قبضة يده.

«... إلى هذا الحد؟»

في ذلك الوقت، أظلمت الدنيا أمام عينه، ثم بعد ذلك، أصبحت الرؤية هذه المرّة، على العكس، واضحة ومؤكّدة. ببطءٍ أدار ماساكي مقلتيه فقط في ذلك المشهد محملقًا فيه.

«أنا...»

عندها انتبه ماساكي أنّه الآن وسط الهلاوس نفسها. ثم ومثل اليوم الأول عندما ضلَّ طريقه في هذا الجبل، كان يئنُّ من آلام الجرح، ويزحف على الأرض وحيدًا.

«... لا أفهم. ولكن هل ولو انتظرت بهذا الوضع، سأعود إلى عالم الواقع كما يحدث دائمًا؟... هل يا ترى إذا استيقظت، سأطمئن وأنا أجد الطبيب ينظر متوجِّسًا إلى وجهي، فأبتسم له ولمالكة النزل وعاملاته مراعاةً لهم جميعًا، وأنا أقابل ببطءٍ كلَّ تلك العيون، جميعها، واحدة بعد أخرى، مثل اليعسوب الذي يهبط على سطح الماء؟ أو هل

يا ترى سأقول لهم مزحة؟ ... لا، بل ربما أفقد الوعي بهذا الشكل كما أنا، ثم ينقذني الراهب المبجل، وأستيقظُ من النوم داخل الكوخ الذي نقلني إليه. أو أمام كوخ المرأة، أو ربما على جسر هياكوتشو... آه، لا أدري. لقد كنت أعتقد واثقًا حتى الآن أنَّ هذه اللحظة لا تزيد عن أنها مجرد وهم من الأوهام. ولكن ألا يكون هذا المشهد حقيقة هذه اللحظة بحق، الواقع فعلا؟ ثم ألا يكون أنني أكون حيًا فقط، عندما أعود إلى هنا؟... لا أدري، لا أدري، ولكن دعنا من الماضي، لا شكَّ أنَّ الآن واقع معاش. لقد أتيتُ إلى هنا بالتأكيد مشيًا. لأنني أتيت مشيًا بهذه الأقدام. أتيتُ مشيًا؟ آه، هو كذلك ولا شك. ولكن أصبح ذلك الآن أمرًا أشكُّ فيه. إلى أيِّ مدى يحمل هذا معنى؟ فلن يصبح ذلك بأي حال برهانًا على أنني عشت في الواقع. ومثل شكِّي في أنني أتيت مشيًا، لا يوجد في الأغلب أي فعل من الأفعال التي أتيتها في أثناء هذا الشهر، يمكنني تذكره بثقةٍ وتأكيدٍ. ورغم ذلك، كل ذلك الآن قد يُفقدُ واحدًا بعد آخر. لا، ليس هذا فقط. بل وحتى فترة الأربع وعشرون عامًا التي عشتها حتى اليوم، تكاد كلها أن تذوب داخل الخيالات!!

حني ماساكي جسده ومد يده إلى جرح ساقه. فقط بمجرد لمسها لمسة خفيفة، انتشرت الآلام الرهيبة في الجسد كله وكأنه يحترق بالنار. الدماء تتدفق بسرعة كبيرة وكأنَّ الجرح قد لدغ تم لدغه الآن في هذه اللحظة. الجرح مع مرور الوقت يرسم دائرة كبيرة، وكأنه قد عاد مرّة ثانية إلى الحالة التي كان عليها في الأصل.

«هذا الجرح عبارة عن وسمٌ ختم به جسدي. بل إنه وسم خادع يبدو وكأنه هو ذاته لحم الجسد.»

لم يستطع ماساكي تحمُّل الآلام الرهيبة فكان يحكُّ رأسه بالأرض

مرات عدة من شدة الألم. انغرز غصنٌ صغيرٌ في وجنته، والأوراق
الذابلة سدّت فتحتا أنفه، واتسخت شفثاه بالتراب.

«إنني أبتلع... نحو الأعماق...»

لم يستطع انتظار الصباح. كان ماساكي يعلم أنّ عمره لن يتخطى
هذه الليلة.

الأنفاسُ التي تسرّبت في تشنّجٍ قلبت أوراق الشجر التي حول فمه.
الأغصان فوق رأسه تصيح بهدوء.

«هل سأموت كما أنا على هذا الحال؟»

يحاول الوقوف. ولكن لا تصل قوته إلى أطرافه الأربعة. وكأنّ
جسد ماساكي كان يوجد بالفعل في مكان ما آخر بعيد. تدريجيًا بدأت
الجفون تثقل، وحتى عندما يطرف بعينه كانت فترة إغماض العين
أطول. والآن وكأنّه يطرف بالعكس؛ فقط يحاول من وقت لآخر أن
يفتح عُنوة العيون المغمضة.

سحب يده اليمنى بصعوبة وضغط بها على عينيه. باطن الجفون
يبرق وكأنه مُلأ بشررٍ متناثر. وفجأة برز ظهر المرأة. تحت السماء
المثبّته بعدة طبقاتٍ والمصبوغة بالظلام، فقط القمر هو الذي يلمع
مضيئًا فوق تلك البشرة البيضاء.

«هل في هذا الوقت بالذات، تلتفت المرأة وتقتلني بنظرة من عينها
تلك؟»

تمنى ماساكي ذلك مراتٍ عديدة في قاع وعيه المشوّش. وهو يشمل
الرجاء بالقوّة الضئيلة المتبقية في أنامله المرتعشة.

ولكن تحت الجفون، وكأنّ طبقة جفون ثانية قد انسدت، أصبح

البرق مظلماً وضبابياً. ثم بعد ذلك، طبقة، ثم أخرى...
أخيراً أصابع اليد اليمنى التي وُضعت على محجر العين، سقطت
على الأرض بهدوءٍ تامٍ وبدون صوت.

بعد مرور بعض الوقت، أحسَّ ماساكي أنَّ الجهة الأخرى من
الجفون قد أصبحت مضاءة.

أصبح ظهر المرأة خفيفاً جداً وكأنَّه رسمٌ شفافٌ. تزداد الأشعة
لمعاناً أكثر وأكثر، ويضغط ذلك على المشاعر. والعجيب أنه يسبب
راحة ومنتعة. وكأنَّ يداً لينة تلمسه بحنان.

شكَّ ماساكي وارتاب في أنَّه قد استيقظ. وهنا فتح جفونه بخوف.
الأهداب انفصلت عن بعضها البعض إلى أعلى وإلى أسفل ببطءٍ شديدٍ
بسبب أشعة الضوء.

كان الذي انعكس داخل عينه، فراشة تريح جناحها فوق أرنبة أنفه.
إنها الفراشة خطافية الذيل ذات الجمال الحزين، مثل تلك التي كانت
في ذلك اليوم، تبرز فوق الأرض الخضراء التي تفيض باللامعنى، لها
نقطتين بلون قرمزي مثل العلامة...

وبدت وكأنها تشعُّ أشعة خافتة للغاية.

كان جسد ماساكي ما زال كما هو في وسط الجبل. تفيض الدموع
من عينيه بغزارة وسرعة.

استخدمت الفراشة أرجلها الرفيعة، التي كأنها شعرة من الرأس تم
ثنيها، ببراعة ومهارة حاملة نفسها، ووصلت إلى ما بين حاجبيه مارّةً
بأرنبة الأنف. يا لشدة جمال تلك الأرجل التي ليس بها عضلٌ يدعمها،

التي بلا معنى . ذلك الملمس الرقيق قاد ماساكي للإحساس بحنين غريب، وذكرياتٍ بعيدة.

||... آه.||

الفراشة التي هبطت على العين اليسرى، اندهشت من هذا الصوت غير المتوقع الذي تسرَّب، فطارت مغادرة المكان، وهي تنشرُ أثرها وكأنَّه ثلجٌ خفيف. عندما انجذبت العين إلى الأثر ورفعت نظرها، اندفع الجسد بقوة إلى أعلى، وعلى الفور استند الجسد إلى المرفقين. شعر ماساكي، على غير المتوقع، أنَّه قادرٌ على المشي مرَّةً أخرى.

أخيراً استند إلى الأشجار المجاورة، وعندما وقف بصعوبة، هجم عليه دوارٌ عنيفٌ وكأنَّ دماء جسده كلَّها هرعت في وقتٍ واحدٍ إلى دماغه، وذهبت من دون أن تترك قطرة واحدة في باقي الجسد. المكان أمام عينيه يلتحف بأشعة لامعة متألِّقة وكأنها قطع بلورية بُعثرت تحت هالة الشمس بعد تكسيروها. بلا وعي أغمض جفونه. مرَّ أمام عينيه سريعاً المشهد الذي رآه قبل وقوفه مباشرة. عندما فتح جفونه ثانية، كان المشهد عبارة عن أشعة مبهرة للعين تشبه أشعة النهار القوية. ثم في داخل ذلك الوميض اللامتناهي، برزت بشكل خافت ظلال الفراشة.

تتماهى جناحيها الفاخرين مع تلك الفراغات التي بين الوهم والحقيقة. تلاحمت الأشعة الملونة المنقبضة لتأخذ شكلاً وتتطابق مع تلك الظلال الضبابية. ساد الظلام الجبل في الليل.

كان من المفترض أن الفراشة هي التي سترشده إلى الطريق. الطريق من الأصل لا توجد إلا أسفل ذلك البريق.

تابعها ماساكي بكلِّ قلبه وجهده وهو يستند بيده مرات عديدة إلى

الأرض. وعندما مسح جبهته، نضح العرق على الجروح العديدة التي على وشك الإصابة بتبؤد الحس. الذراع الأيمن الذي لطّخته الدماء قليلاً، اتسخ بالأثر الذي بعثرته الفراشة من أجنحتها، فلمع وكأنه قشرة من التبر. الجبهة ساخنة، وسطحها مغطى ببرود بالبشرة التي لا تتوقف عن التعرّق، والمستمرّة في طرد البخار.

الفراشة ما زالت صاعدة. اخترقت بوابة أشجار البلوط، وهي توضّح الطريق الوحيدة التي تم تعبيدها من خلال بسطها بأخشاب شابة من ذلك البلوط على سفح الجبل. ماساكي الذي انقطعت أنفاسه ويئنُّ من شدة الألم، يلتزم تلك الطريق بقوة دفع لا تتوانى. لا يمكن نفي ضعفه وهزال جسده. ولكن الجسد الذي تعب ونحف يمتلئ بقوة عجيبة. ماساكي الآن على قيد الحياة. بواسطة قوّة من يحب، وكذلك على الأرجح بواسطة قوّة ما أضخم وأعظم من ذلك بكثير!

مع زوال الظلام تدريجياً، اخترقت أفكار ماساكي الماضي. الضباب الساقط في ذلك اليوم الذي ظلّ في التيه، بعد أن لاحق الفراشة نفسها في الجبل نفسه، وجه العجوز الذي اختفى فجأة من النُّزل، مظلة المرأة التي رحلت إلى يوشينو، الأيام العديدة قبل خروجه لهذه الرحلة... ثم كل اللحظات التي عاشها حتى اليوم. لا يستطيع مطلقاً اللحاق بالذاكرة التي كانت مثل سهم انطلق معتمداً على تلك المناظر والمشاهد. ولكن فقط في داخل ذلك منظر ظهر تاكاكو بدون تغيير، ومنظر ذلك الوجه الجانبي الذي يمكن لمحة خفية بشكل ضئيل، يظهران سريعاً بالتبادل. لم يكن ينعكس ذلك فقط على القلب. بل لقد رأى ماساكي كل ذلك بأم عينه واحدة بعد أخرى.

مناظر الجبل، تتحوّل واحدة بعد أخرى إلى صور في الذاكرة، وتذوب، وتصبح سلسلة أو هام واحدة طويلة. تفقد الأشياء أشكالها، وتذوب الألوان في بعضها البعض. تنشقُّ بحدّة مناظر قاع الغابة مع كلّ طرفة عين، ثم يُبعث من جديد ذلك الاختلاط صعب التابع بين الحقيقة والذاكرة.

من الأفق البعيد يوجد شيءٌ ما يجذب ماساكي إليه. وعلى العكس من ذلك، من خلفه مباشرة، يوجد شيءٌ ما يقبض على قدمه المجرّوحة تلك ولا يريد إطلاقها لتتحرر. كلا القوّتين تتبادلان اختطاف جسده بعنفٍ شديد. وكان ذلك ما يمكن القول عنه إنها قوّةٌ واحدة. قوّةٌ واحدة نتجت عن ارتباط القوتين في أعماق سحيقة. مثل سرطان بحرٍ عملاق، أخذ سمكة صغيرة في الأسر، وأحد أذرعه يمسك برأسها، والآخر يمسك بذيلها، ويجذبها بقوّة وكأنّه يقول سأمزّقها إربًا إربًا، مقرّبًا إياها إلى فمه ببطءٍ شديد، ماساكي الآن في طريقه إلى الهاوية أخيرًا، وهو مطحونٌ بين هاتين القوتين.

في أجنحة الفراشة، العلامة القرمزية، تضيء بارزةً بلونٍ زاهٍ. ثم، الآن، المشهد الذي رآه أمام بصره، الذي رفعه إلى أعلى، كان بلا أيّ شكٍّ أو ارتيابٍ مشهد قاعة صلاة الزن الموحشة في ذلك المعبد.

كانت الطريق قد وضحت بالفعل. وبدأت تنكشف تدريجيًّا تلك اللوحة التي قطعت كثافة الغابة الكثيبة، وبرزت في ضبابية. لا تبعد مسافةً كبيرة. ولكن يالها من طريقٍ بعيدةٍ ووعرة. هناك يرقد

اللانهائي مُرَكَّبًا. يرقد اللانهائي مكثَّفًا كأنَّه قد عُصِرَ وكَثَّفَ كلَّ حركةٍ في هذا العالم مبتلعًا إياها. كما وكأَنَّ الأمر عبارة عن التجديف في مركب بمجدافٍ بلا جناح، الجسد لا يتقدم إلى الأمام. مقياس العين خادعٌ في كلِّ لحظة، والفجوة يمكن الشعور بها فقط مع آلام كلِّ لحظةٍ وأخرى.

الجفون تزداد ثقلاً على ثقل، وطرف العين يشقُّ العالم نصفين بشكلٍ متوالٍ، مما يجعل ذلك المشهد المألوف يظهر بإلحاح من ذلك القاع. الآن، عالمان يتبادلان انتزاع ماساكي بالتساوي، وفي كلِّ لحظةٍ يؤخذ جسده هذا أسيراً لهما. يعدو ماساكي وهو يعرج. يزحف في قاع الغابة. التغيُّر بلا نهايةٍ وبلا حدود، تتراكم الصور الباقية واحدةً فوق أخرى، ثم تصنع منظرًا آخر مختلفًا تمامًا. ألم جرح الساق عنيف. ازداد طَرْفُ عيونه. وفي سرعة هائلة أصبح ماساكي لا يتذكَّر بدقةٍ متى وأين وماذا كان يفعل هو نفسه...

وبالفعل، اختفى منظر الفراشة. وبمجرّد أن انتبه إلى ذلك، انزلق مزلاجُ أمام عيني ماساكي، وكأَنَّ بوابةً قد انفتحت، فاتسع المشهد وامتدَّ أمامه فجأةً.

وقف ماساكي مبهورًا.

لم يكن هناك شكٌّ أن تلك هي الحديقة المألوفة لديه. ولكن مهما بحث، لا يوجد أيُّ أثرٍ ولو ضئيلٍ لمنظرها القديم. الأشجار جميعًا سقطت أوراقها، وذبلت الأزهار والأعشاب، واختفت المحاصيل الزراعية تمامًا. ولا يُرى أيُّ نوعٍ من أنواع الحشرات، توجد فقط جثث الدبابير المميّنة التي علقَت في بيت عنكبوت متدلّية أسفل فروع الأشجار

التي بجوارها، وهي تتأرجح في هدوء. تدفق الحياة المترف الذي كان يُرى في كل مكان غرق بعد الذبول ولا يوجد له الآن أي أثر. ثم يسيطر الظلام على المشهد تمامًا.

أصبح دوار الرأس عنيفاً مرّةً ثانية. وخلال الفترة التي كان يتأمل فيها ذلك، ظلّ ماساكي يجيء ويذهب بلا انقطاع، على مشهدٍ مخالفٍ آخر. ازداد التملّص حدّةً. عندما نظر مرّةً أخرى إلى قاعة صلاة الزن، لمحت عيناه الراهب إينيو نائمًا وهو جالس.

الصمت يزحف مقتربًا من أقدامه مثل مد البحر، فيلتحم مع هدوء قاع الغابة، وجرح ساقه. تملّك الرعب من ماساكي. من تلك الآلام الشديدة، تلك المتعة التي لا يمكن التعبير عنها.

الشيء الذي اجتاحني أكثر، هو ذلك السم، ذلك الصمت.]]

على الفور، أدرك ماساكي تلك الحقيقة. ذلك الصمت الذي يبعده بقوة عن تاكاكو أكثر من أيّة كلماتٍ وأكثر من أيّ أفعال. ذلك الصمت الذي لا يسمح له بالوصول إلى تاكاكو، والبقاء عندها. ذلك الصمت الذي لا يسمح حتى بتخطي تاكاكو مع تاكاكو. ثم إنه ذلك الصمت الذي في النهاية لا يجعل حماس ماساكي، حبه تجاه تاكاكو، يكتمل أبدًا...

هز رأسه، واندفع ماساكي بقوة شديدة. ينبغي أن يجتاح ذلك. في التوّ والحال، في هذه اللحظة بالذات، ينبغي اختراقها. ليس من خلال فعل ذلك بالكلمات. ولكن فقط من خلال التقدم بقدمه خطوة للإمام. تخطى الحديقة، وكلّما اقترب من الكوخ، يتناهى إلى سمع ماساكي نحيب المرأة المؤثّر وكأنه عقد لؤلؤ يزِين جيدها.

صرخ ماساكي:

«حسناً، لا تبكِ بعد الآن! لقد جنّت مرّةً أخرى، من أجل أن ألقاك،

فقط من أجل نظرةٍ من عيونك!»

استمرّت المرأة في البكاء.

«لماذا تبكين؟ أليست تلك الدموع من أجلي أنا؟ لا... لا يمكن

أن أصدّق، هذا أمرٌ لا يمكن تصديقه، أنتِ من دعاني إلى هنا، أنتِ

من أرشدني، أنا موجودٌ هنا، بجوارك تماماً... فضلاً، اخرجي الآن،

اخرجي ودعيني أرى وجهك، وإلا فأنا...»

دار ماساكي حول المدخل، وباندفاع وضع يده على الباب. وبسبب

ضغط الأصابع بقوةٍ عليه، سقط على الأرض جزءٌ من سطح الخشب

المتعفن وكأنّه تجمّع من الطين. ولكن الباب مغلقٌ بصلاية ولم يتحرّك

ولو قليلاً.

«لا، لا تدخل، من فضلك لا تدخل... آه، أرجوك بأيّ شكل، ارجع

من حيث جنّت بحالك هذا، ارحل عن هذا الجبل.»

خوف المرأة الشديد جعل ماساكي يمتنع عن الدخول عنوةً إلى

الكوخ. ودار حوله، وتوقّف أمام الجدار الذي يأتي منه الصوت.

ثم، مرّةً أخرى، توجه إليها بالنداء وتلاحق أنفاسه.

«هل تقولين ارجع؟ في حالي هذا؟ بدون لقاءك؟ لا أستطيع... أنا

لا أستطيع ذلك! لماذا تقولين ذلك؟ لماذا لا تسمحين لي بلقاءك؟ هل

أنت تعرفيني؟»

«أرجوك لا تتكلّم أكثر من ذلك.»

«لا، أنا بالفعل عرفت كلّ شيء، مسيرة حياتك، وعينيك هاتين،

اللتين تقتلان من ينظر إليهما... آه، ولكنني جئتُ بمحض إرادتي وأنا
أعرف كلَّ شيءٍ ولا أمانع! رغم علمي بذلك أريد أن أنظر إلى وجهك،
أريد أن أرى ذلك الوجه الجميل!!

لا ينبغي ذلك. تلك رغبة شريرة.

لماذا؟ لماذا لا تجعليني أحظى برؤية ذلك الوجه؟

أنا لا أستطيع قتلك، آه... مجرد وضع تلك الكلمة على لساني،
يجعني أعاني وكأنَّ جسدي ينشطر نصفين.

أنت تعرفين كما أتوقَّع، ما أكنَّه لك من مشاعر، ولكن تحاولين
التصرف كأنك تجهلين ذلك!!

لا أعرف شيئاً!!

تعرفين أنَّ الموت الذي تحمليه أنتِ لي، ليس بالشيء التعس
بالنسبة إليَّ، وتعرفين إلى أيِّ درجة أنا راغبٌ فيه.

كسرت تلك الكلمات الجدران، وتبعثرت متحطمةً كأنها أمواج
عارمة اقتربت من الضفة.

توقفت الكلمات في فم تاكاكو.

أنا ليس لدي وقتٌ كافٍ، فأنت الآن تحاول الذهاب بعيداً عني.

ألقي الصمت بثقله على ذلك الظهر. غرق الكوخ في الضباب. لا
ترحل مناظر الغابة عن عيونه حتى مع فتح جفونه.

من أجل أن يسند جسده، وضع ماساكي يديه الاثنتين على الجدار.
أدهش ذلك الصوت تاكاكو مرّة ثانية.

آه، يا للمعاناة، لم يسبق لي أن لعنتُ نفسي كما أفعل الآن، فدعوتي
لك تُسبب لي معاناة ما بعدها معاناة، إنَّ قلبي نصفه لي والنصف الثاني

تملكه قوّة ما مرعبة لا يمكن التعبير عنها بالكلمات، عندما أفكّر في شخصٍ تأتيني رغبةٌ في لقائه، ومهما كان في مكانٍ بعيدٍ، أقوم بلا وعيٍ بدعوته. وتحقّق الأمانة بالقوّة إذا دعوته فقط. ۞

القد ظهرت لي في أحلامي مرّاتٍ عديدةٍ في منظرٍ جميلٍ لا مثيل له مطلقاً. ۞

كنتُ أحلم بك حينما كنتَ تحلم بي... بالنسبة لي لا فرق بين الواقع والأحلام، ولا شكٌّ في أنني سأقتلك... آه، ولذلك من فضلك، أتوسّل إليك، عُذ من حيث جئت. ۞

لا، إذا كان الأمر كذلك فهو أدعى بالنسبة إليّ، أنا وأنتِ تقابلنا في الحلم، بالنسبة إليّ الواقع والأحلام سيّان. ۞

لا، فأنتَ تختلف عنيّ، أنتَ بالذات يجب أن يستمر موتك كموتٍ في ذاكرة الناس. ۞

يا لها من كلمات! أنا لا أمانع، إذا كان الأمر كذلك فلاصبح أنا قطرة من الندى الليلي التي لم يستطع التاريخ الإنساني اغترافها للنهاية. ۞
لا ينبغي ذلك. ۞

أموتي تعرفه تلك الأرض، يعرفه ذلك القمر، ثم أنتِ! ۞
آه! ۞

أنعم، حياتي هي لحظة تألّق الرذاذ المتناثر من موج عالٍ في بحرٍ ضخم، هي لحظة وميض ورقة نبتت في شجرة عملاقة، إذا كانت ستُفقد عاجلاً أو آجلاً، فليكن ذلك هنا في هذا المكان! أمامك! هل يمكن التفكير في ذلك؟ عندما تفكّر في ذكري، عندما ترين حلماً، لماذا لا أبعث أنا للحياة مرّةً أخرى؟ وكما يبدأ القمر الذي مات في

التألق مرّةً أخرى، أُبعث أنا في كلِّ مرة، أُبعث حقًا وبشكل مؤكد. ۞
لا ينبغي ذلك! إذا نزلت إلى سفح الجبل، بالتأكيد ستجد العديد
من اللقاءات التي يشواق لها قلبك. ۞

هل تقولين إذا نزلت؟ ما هو المعنى يا ترى لشيءٍ قد يحدث في
المستقبل؟ هل تطلبين أن أترك هذه اللحظة، وأطلب الغد؟ آه، لا أريد
أن أسمع مثل هذه الكلمات. ۞
اهتاجت نبرة كلام ماساكي.

أمن فضلك، أرجوك أن تستمعني إلى حبي، حبي هو ضربةٌ واحدة
من سيف، سيف يلمع بلونٍ قرمزيٍّ ملتهب بعد أن سُخِّن بعنفٍ في
اللهب، ويبقى مصقولاً في النار كما هو، ولكن هذا كله لم يكن إلا
داخل غمدٍ مزينٍ بجمال، لو نُزِع من غمده وسقط، لكان قاتلاً للنفس
بشكلٍ مؤكد، ولكن هل توجد ضرورةٌ لإثبات ذلك بلا طائل؟ إذا كان
سيفاً، لكان من المفترض أن الموت متخفٍّ في داخله، موت يحدث
بضربة واحدة من ذلك السيف! المطلوب فقط نزع من الغمد لمرّة
واحدة، إذا كان سيفاً لا يقطع فسيكفي ذلك! ثم الآن قمت أنا بنزع
ذلك السيف من غمده، نزعتُه أمامك، وألقيت بالغمد بعيداً منذ فترة،
ولا أقدر على وضعه في غمده مرّةً ثانية! عليك أنتِ فقط أن تقبضي
على ذلك المقبض ثم وضعه على صدري، ثم غرزته بكل قوى جسدك!
عميقاً، عميقاً، إلى درجة شقٍّ وتمزيقٍ الأفق البعيد! ۞

بكت تاكاكو بنحيبٍ عنيف. الكلمات أصبحت متوحّدة مع
ماساكي. حقيقةً إلى درجة التوحّد، ولكنها عديمة الفائدة إلى درجة
التوحّد أيضاً. الكلمات مزقتها، فتناثرت إلى فتات، وتخطتها بكل
سهولة. تاكاكو الآن تفهم ماساكي مباشرة.

ولكن حتى في تلك الفترة، كان الصمت يلمع مستحوذاً على المكان. أصبح ظلُّ الكوخ بعيداً وضبابياً، وغرق مترسباً في قاع الغابة. يحسُّ بصداع شديد، أخذ ماساكي تدريجياً يفقد إحساس اللبلاّب الذابل المتآكل من راحتي اليدين الراسختين على الجدار. آلام جرح الساق تشتدُّ. الحلق ملتهب.

مثل فناديل البحر التي أَلقت بها الأمواج على الشاطئ، ترتطم أمواجٌ باردةٌ بأسفل بطن ماساكي. تأتي ثم ترحل، مثلما تنكشف عنه الرمال المحيطة به تدريجياً وشيئاً فشيئاً، وفي النهاية تبتلع الأرض جسده. الليل شديد العتمة. أصوات الوقواق عالية. نفاد الصبر يدق بعنفٍ أجراسه داخل طبلة الأذن.

دخلت عينه نقطة عرقٍ تجمّعت على الصدغ. مدَّ ماساكي عنقه. ثم أوصل وعيه الشارد المضمحلّ إلى القمر البارز أمام عينيه. مرّت مناظر متعددة على تلك المرأة الساطعة في سماءٍ خالية من الغيوم. يستطيع ماساكي أن يعكس منظر المرأة هناك الآن بكل وضوح. ذلك الشعر، وتلك الذراع، وذلك الظهر.

ثم ذلك الوجه الذي يستمر في الاشتياق إليه، وتينك العينان، حقاً في تلك اللحظة التي ستظهر له فيها، في اللحظة التي تنظر إلى الخلف وتصيب ماساكي مخترقةً إياه، من داخل الكوخ، تردّد صدى صوت تاكاكو يشقُّ الظلام.

آه، لم يعد هناك حيرةٌ أو تردّد، حان الآن أن أعرب عن نفسي، إلى أيّ درجةٍ أنا أيضاً أفكّر فيك، إلى أيّ درجةٍ أعشقتك، منذ زمن بعيد، آه، نعم، لم أنسَ ولو للحظة من الزمن، إلى درجةٍ كان حبي هذا عميقاً، إلى درجةٍ كان مؤلماً ومحزناً! حبي الذي يسّست منه منذ البداية قائلة

إنه لا يُفترض أن يتحقَّق، إنه الآن، يا لها من معجزة! ها هو على وشك التحقُّق، ها أنت تبذل حياتك لي من أجل حبي!!

الصوت وصل إليه بالتأكيد. ماساكي وصوته يتحسرج بفعل الدمع والتأثر، صرخ متجهاً بكلامه نحو القمر في الأفق البعيد الذي يغرق تدريجياً مع مرور الوقت في الظلام.

«إذا كان الأمر كذلك، أرجوكِ بأيِّ شكلٍ أن تخرجي من كوخك! اخرجي، وانظري بعينيك هاتين إلى وجهي، انظري إلى وجه من يحبُّك، إلى وجه من أحبِّك، بحزم وتأکید! ولا ضير أن تعيشي أنتِ مع تلك الذاكرة، ولكن مع التفكير في ذلك الوجه وتينك العينين اللتان رأيتهما لمرة واحدة فقط!!»

«لا، وكيف لي القدرة على قتلك وحدك؟ أنا كذلك لا أريد أن أفقد تلك اللحظة، تلك اللحظة معك أنت، تلك اللحظة التي لا توجد في الحياة إلا لمرة واحدة فقط! أرجوكِ بأيِّ شكلٍ، لا تتركني وحيدة وترحل بمفردك! كيف لي أن أعيش طويلاً بعد فقدك؟ كيف لي أن أواصل تحمُّل تلك المعاناة؟ أرجوكِ بأيِّ شكلٍ أن تنظر إلى عينيِّ البائستين هاتين، ثم أرني وجهك، أنا أريد أن أموتَ معك، أريد الموت، معك أنتَ، الوحيد الذي أحببته في حياتي، الآن، بجانبك!!»

كلمات المرأة جعلت ماساكي يرتعش.

«آه... ياله من قول! هو كذلك، تلك هي الكلمات التي تمنيتها سرّاً، الكلمات التي أردتها! في تلك اللحظة! في لحظة الوصول لمنتهى السعادة تلك! أنا أيضاً بالتأكيد أريد أن أموت معك، بجوارك ومعك!... آه، ولكن، لا يمكن لي قول ذلك، بالوصول إلى هذا الحد أنا نادم على قولِي هذا... شيءٌ ما يأتي مقرباً... هل فات الوقت حقاً؟»

دوامة كبرى تبلت عني... ظلام، ظلام دامس... لقد فات الوقت... القمر
يغرق ذاهباً... حسناً، بسرعة، بسرعة، أريني ذلك الوجه... شقي تلك
الظلمة، دمريها، ثم، بعينيك هاتين، هاتين العينين اللتين تلمعان، ارمني
واخترقيني... للعمق... أنا... كلي!...!!

... قمة الجبل ترتوي بشمس الصباح، وعندما كادت أن ترتفع بارزة
في السماء أخيراً، ارتدى إينيو الذي خرج من قاعة صلاة الزن، حُفَّ
القش، وسار بمفرده متوجّهاً إلى كوخ تاكاكو.

يصيح طائر الرفراف من وقتٍ لآخر وهو ينقر بمنقاره بواقى الليل
المتراكمة فوق أشجار الحديدية. المنقار الأحمر الطويل ينعكس متلألئاً
رائعاً على الصباح الصافي. يكرّر حركته مع كل اهتزازة للأغصان.
عند موضع الأقدام، ورقة شجر ذابلة واحدة، تتدلى وهي على وشك
السقوط في التوّ والحال.

العصافير التي تجوب الحقول بحثاً عن الطعام، اندهشت لطيف
الراهب، فطارت جميعها مرةً واحدة، وهرب كل عصفور على حسب
ما ترائى له، منها ما طار فوق مبنى قاعة الزن ومنها ما طار فوق سقف
الكوخ، وهي تصدح من وقت لآخر.

صباحٌ هادئٌ لا يختلف عن المعتاد.

عندما كان على وشك المرور بالحديقة، توقفت عينا إينيو فجأة
على نبات الإيدوليس الذي تفتحت زهراته بالقرب من أقدامه. داخل
الحديقة التي ذبل واضمحلاً أغلب ما فيها تقريباً، هذا المكان الوحيد،
هو فقط الذي تبقى فيه الزهور بشكل يدعو للعجب. ذلك التجمّع
الجميل المنتشر على الأحجار التي تغطيها الطحالب الخضراء، وكأنّه

يلفُّها كرداء، تمتصُّ هواء هذا اليوم اللذيذ المنعش، وتنافس أوراق الزهور الزاهية.

كان ذلك وكأنَّه بعدُ حلمٍ في غاية الطهر.

كانت تاكاكو واقعة أمام باب الكوخ. غطَّى الشعر الأشعث جزءاً من وجهها الذي كان مثل سطح خزفي جميل اعتلته زرقَةٌ خفيفة. ينساب من فمها وكأنَّه أحمر شفاه قد خُطَّ عن طريق الخطأ، خطٌّ من الدماء الطازجة ليصل إلى الأرض، وهناك صنعت الدماء بقعةً صغيرة.

بعد أن صمت للحظة واقفاً في خشوع، وضع إينيو إحدى ركبتيه على الأرض، وحمل تاكاكو بذراعيه.

كانت الجثة خفيفةً وكأنَّها قطعةٌ من الحرير الخالص. عندما كان على وشك الوقوف، العنق الذي كان مرفوعاً، تدلَّى بين المرفقين، ثم توجه الفكُّ إلى السماء، وانفتحت الشفتان قليلاً.

يُسمع صوت طائر الوقواق يأتي من عمق الغابة.

بدأ إينيو في السير.

زادت أشعة الشمس من تألُّقها تدريجياً، ثم ها هي تنير وجه تاكاكو مبرزةً إياه. الجفون مغمضةٌ في جمال، والرموش المبتلَّة تلمع في صخب.

بعد أن سار قليلاً، توقَّف إينيو وعطس عطسة كبيرة. وبالمثل، انسكبت بين ذراعيه خصلةٌ من الشعر الأبيض الملطخ بالدماء، واهتزَّت في هدوء متمائلةً مع الريح...

عندما كان الراهب على وشك الوطء بقدمه للسير مرَّةً أخرى، نظر إلى الخلف ببطءٍ شديدٍ وكأنَّ شخصاً أوقفه منادياً إياه.

في تلك اللحظة، ومن وسط بركة الدماء التي تُركت مكان تاكاكو،
طارت فراشةٌ ترفرف بجناحيها مبهرَةً للعين.